

الجفاف الطويل

الجفاف الطويل

صدر العمل الأصلي عن دار نشر بارثيان في لندن PARTHIAN

بمعنوان The Long Dry

رواية

كونان جونز / ويلز

ترجمة: محمد المغربي

تدقيق لغوي: أحمد يوسف عزت

الغلاف : هانيبال - هيبو

الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠٠٨

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٥٠٨٢

ISBN: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٩٩- ٠٥ - ٤



وكالة سفنكس للفنون والآداب

٧ شارع معروف الدور السابع

وسط البلد - القاهرة

ت/ف: ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناسر، ويحظر نشر أو اقتباس أي جزء من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2008

This book Published with the financial support of Llenyddiaeth Cymru
Dramor / Welsh Literature Abroad

obeikandi.com

كونان جونز

الجفاف الطويل

ترجمة: محمد المغربي



وكالة سفينكس للفنون والآداب

كونان جونز.

كاتب يمثل موجة السرد القصصي- الجديد في بريطانيا، والجفاف العظيم أولى رواياته المنشورة في يناير ٢٠٠٧، ويعترف المؤلف بصراحة مذهشه أن كتابته لتلك الرواية التي ربت صفحاتها في الأصل الانجليزي على مائة ونيف صفحة لم تستغرق منه سوى عشرة أيام مما يعكس السرعة المذهلة في حالات الإبداع الجديدة المخالفة لحالات الإبداع التقليدي التي كان يستغرق فيها الأديب شهورا وسنين مما ينطبع كذلك على الأخيلة والأسلوب، ومع إن هذه الرواية هي أولى كتاباته إلا إنها أصابت نجاحا مذكورا في المملكة المتحدة.

كونان جونز ولد في مقاطعه ويلز بوسط انجلترا، في مدينه أبريرون الريفية في الطابع على الساحل الانجليزي الهادئ في الثمانينات، مما ينعكس على رواياته في جدة وأصالة وبراعة.

محمد احمد المغربي

ولد ببورسعيد عام ١٩٥٠

رئيس نادي الأدب بالفرع الثقافي بالمحافظة، وعضو الامانه العامة لأدباء مصر.
- صدر له ديوان: وإيزيس إذ تقوم مرتين صدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة.
وقائع ومشاهير ترجمة صدر عن الدار الجماهيرية للنشر بليبيا. حقوق الإنسان من منظور عصري (ترجمة) عن دار الفجر للنشر- بالقاهرة. مدخل نقدي لإبداعات أبناء القناة وسيناء نقدعن منشورات أمواج.

إهداء الترجمة

"إلي أحبائي، وأعدائي معاً. من أجل أدب خالٍ من الحقد أو المكابرة."

محمد المغربي

obeikandi.com

مفتح

السرد الأدبي إبداع إنساني متفرد، يتماس مع/ ويتداخل في كافة الأشكال الأدبية كالسرد الرواية والقصة والمقال الأدبي وصولاً إلى الشعر، والحديث منه خاصة. والمتابع لحركة السرد عربياً وعالمياً تذهله القفزات الشاسعة التي وصلت إليها أشكال السرد الجديد، إذ تكتسب كتابات ذلك السرد ملامح ومعالم العصر الذي نعيشه؛ تنوعاً وتدفقاً، شمولاً وعمقاً. وتجد نصوص ذلك السرد بعد أن تجاوزت المألوف والسائد قد سدرت في أبحارها ميممة شطر المغاير والمختلف، لاتنتوي - وسط إبحاره الهادر هذا - الرسو بأي شاطئ يلوح على مدى البصر. ليحتويها نظيراً وتقعيذاً للإشكاليات الجمالية والقضايا الأسلوبية التي تطرحها على الساحة الأدبية، وينتظر مبدعوها وكتابوها من النقاد والدارسين أن يلهثوا وراء أشكالها العجلى ولغتها المتجددة بلا حدود وكذا لاستقراء قوانين تطورها وملامح معاييرها، وهو لهاثٌ لن يتوقف مادام الإبداع الإنساني يحتفظ بوظيفته الجمالية والخيرية في عالمنا والي ما شاء الله. هذا الجديد في عالم السرد، يقذفه مبدعوه قذفاً بوجه المتلقي قاصدين إصابة ذهنه -هكذا- بصدمة واعية تعيد تشكيل رؤيته لمفردات الحياة حوله بقبحها قبل جماله، وبتعقيدها قبل بساطتها، بل وبكآبتها قبل حبورها. ورغم انتشار هذا المكون الكدر في بنية حياة الإنسان الحديث في عمومها، إلا أن النص الجديد ينقله على صفحات سرده في بساطة واشتواء، وهنا ينفتح وعي المتلقي على ذلك العالم الزخم الزاخر بالحياة والذي نعيشه حتى النخاع. إذ يفقد الإنسان أهميته ومركزيته الكونية ويصبح هباءة وسط هباءات متكاثرة تحيط به، يتساءل مع كل تلك العناصر المشكلة للوجود حوله؛ فهو يتألم ويلتذ كما تتألم هي وتلتذ، وهو يحزن ويفرح كما تحزن هي وتفرح، جمادات كانت أو بها حياة.... فالمنازل والمزارع والكلاب والطيور وغيرها، كلها تشترك مع الإنسان في تشكيل لوحة الكون العظيم حوله، فلا وجود لما هو ثمين وغال هنا ورخيص وغث هناك، وعش معي ما يرسمه كونان جونز هنا..

إن العالم - كما يعتقد - يمتليء بمثل تلك البطولات الصغيرة، التي يصعب تصديقها، ويراها هو أعظم أنثرا، من البطولات الهائلة في التاريخ، وهو يظن أننا نجد القوة لفعلها، بطريقة أو بأخرى. أخذ ينحى تلك الفكرة بعيداً عن ذهنه، تلك الرغبة الانقلابية المفاجئة نحو المأساة، بعودتهما معاً مرة ثانية، وها هو يفكر فيها، وهي تخطو فوق العشب المنتعش، ويعرف أنها سترفض مُبدئيةً أَعذاراً سخيفة. تتعلق بالمسئوليات في مبدأ الأمر مثل: عليّ أن أقوم بالغسيل، أو ماذا سنفعل في موضوع البقرة؟ أو إنك لم تخبرني شيئاً عن أمر العجل"، لكنه سيتمكن من إقناعها، وسط تلك الأشعة الشمسية البديعة، وسوف يلتقطها، ويحملها - إذا لزم الأمر - حتى تضحك، وسيضعها فوق العشب الأخضر الدافئ، دون حذائها.

إنها معالم السرد الجديد في بساطتها وعمق تعقيدها.

محمد المغربي
بورسعيد

الإهداء

مِنْ أَجْلِ الْعَزِيزَةِ: تشارم، و مُوم

فِي ذِكْرِي: د. لي. و

obeikandi.com

الفصل الأول

البقرة

تراه كقهوة الصباح حينما يأتي ليوخطها.
'لقد رحلت البقرة؛ يهمس لذاته: لقد رحلت تلك المبقعة، ذات
الأثداء الممتلئة، ولسوف أذهب بحثًا عنها.'
انطلق خارجًا -رغم أن شمس اليوم التالي تنذر بطقس حار- يبدو أنه
سيكون كذلك لأسابيع قادمة، بينما تراه هي قادمًا عبر الحارة بطول
الصور النباتي نحو الحقل الواسع، والذباب يطن أزيزًا، وقد مضى -هو-
مسرعًا فوق الأرض الجافة؛ قاذفًا في طريقه الأحجار المتناثرة.
يجتاز البوابة الأولى؛ فتسمعها تصلصل بلطف شديد، عبر خصاص
نافذة الغرفة المُسرعة. تتخيله: واقفًا، ومشاهدًا، ثم مُنصتًا. وكل ما
يسمعه: صوت الذباب، والأنين الخافت للأغنام، حين تنظر إليه.

فتنظر إلى الساعة على المنضدة، بجوار السرير؛ لتجدها قد أوشكت على السادسة.

العجل

لقد استيقظ مبكراً؛ وذهب ليتفقد البقرات، والليل مازال قائماً، لم يستطع النوم مرة ثانية، مع كل تلك الأفكار التي تملأ صمت الليل الساكن؛ لذا فقد نهض وذهب إلى الخلاء والصباح مبكر. حيث بقى الصبح بعيداً لفترة طويلة؛ قبل أن يُقبل الضوء.

وبهدي من ضوء المشعل؛ وجد العجل المولود ميتاً تَوّاً، وسط القش في الجرن، قام بحك المتبقي من إصبعه المبتور، وقد أمكنه رؤية بخار الماء المتصاعد، من أنفاس البقرات، في هواء الصباح -الذي كان حينئذ بارداً- وبَخَرٌ دافئٌ، يشع من أجسادهن. وكانت أم العجل الوليد راکعةً بجواره، منحنيةً في حزن وهدوء. في حين صمتت الحيوانات الأخرى، ونفخت وهي تمضغ اللبن.

قام هو بحمل العجل الوليد الميت من قدميه، ورفعته عن القش، الذي لوثته دماء الولادة - لا الموت - لقد كان أمراً غريباً؛ أن تلعق الأم وليدها الميت لتنظيفه. فكر في الأم، التي تنظف وليدها لعقاً؛ دون أن تفهم؛ لماذا لم يقف ابنها متأرجحاً على قدميه -الهزيلتين- وقد أضحت قدماه غير مستويتين، وعيناه متسعيتين، ولماذا لم تأتِه تلك الحياة الجديدة المترددة؟

حمل العجل إلى خارج الجرن؛ بعدما قام بإحصاء البقرات داخله، وذهب قُدماً إلى الحقل ولسوف تحزن "كيت" لموت العجل؛ فإن العجول نادراً ما تموت عندهم.

وبزغ النهار عبر التلال خلف المزرعة، بينما ترتعش - مثل صوت عصفور صغير - غلالة رقيقة من الليل المظلم؛ جعلت النجوم أكثر تألقاً، وأطلقت ضوءاً ساطعاً - إذا ما قورن بسرقتهما، وعندما يلاحظ البقرة المفقودة.

يتمنى أن تكون قد خرجت من الجرن إلى الحقل؛ حيث توجد بقرات أخريات، مع عدد من العجول الأكبر سنًا، لقد كانت وثيقة الصلة بالعجل، وحزينة، ربما تكون قد خرجت بسبب ذلك الميلاد المفزع. ولم يستطع رؤية البقرة وسط الظلام؛ فحمل العجل الميت، عبر الحقل الخالي من الحشائش؛ بسبب ندرة المطر، ومن مكانٍ ما زارت عربة نقل ضخمة، على الطريق بالقرب من الأرض، التي يلمحها هناك ثم ألقى بالعجل داخل البرّ القديمة، عند طرف الحقل؛ إذ أراد ألا تراه "كيت"؛ لأن إرسال العجل الميت، إلى حيث يمكن معرفة سبب موته؛ يكلف كثيرًا، وهو يعلم جيدًا، أن على المرء أن يفقد شيئًا ما - أحيانًا - دون سبب، أو أنك سوف تفقد شخصًا ما، واستغرقه الأمل في ألا تكون البقرة قد فُقدت كذلك.

المَزْرَعَة

تقع المزرعة على منحدرٍ واطئ، يبعدُ أميالًا قليلة عن البحر، وقد اشترى والد "جاريث" المزرعة بعد الحرب؛ لأنه لم يشأ العمل في البنك الذي كان يعمل به بعد ذلك، وكانت المزرعة تُخص سيدة نرجسية عجوز، لمحها رجل البريد تُطعم دواجنها ذات صباح؛ مرتدية ملابس النوم، ولم تكن تملك أية دجاج في الأصل، فقط كان لها: زوج، وثلاثة أبناء ذهبوا للحرب، وقُتلوا جميعًا؛ واحدًا تلو الآخر بترتيب العمر، وعندما رأوها تُطعم الدجاج غير الموجود؛ أبعدها إلى بيتٍ آخر، حيث ماتت

بأزمة قلبية، كما لو كانت لم تتحمل ابتعادها عن المزرعة. وعندما اشترى والد "جاريث" المزرعة؛ كانت آخذةً في الانهيار.

وقد انتقلت أسرته إلى المكان، منتويةً إعادة بناء المزرعة وإعادة تعميرها، لكن بعد شهور الحماس القليلة التالية؛ نفذوا القليل مما أملوا، واستقروا في المكان؛ حيث بدأت الأشياء تكتسب مسمياتها: الحجرات، والحقول.

في المنزل الجديد؛ بعدما تم إصلاح الأرضيات، وتغطية وتغليف الحوائط، وطلائها بدهانات لامعة، نُسقت الأشياء هنا وهناك. فإن المسألة شديدة الدقة، كما لو كان المرء يتخذ وضعًا محددًا لالتقاط صورة، كان ذلك غريبًا بالنسبة لـ "جاريث"، الذي كان صغيرًا وقتئذ. وعندما بدأ المنزل يعتاد أناسه الجدد؛ بدا أن الأشياء تلمس راحة أكبر لنفسها، مثل: استقرار الأرض -صدفة- وبصورة صحيحة -إلى حد ما- ومثل خليط الأشياء، التي تتداخل في سور المزرعة، و بدءوا الاسترخاء والتنزه، حول المنزل بأحذيتهم، كما بدا للأطفال -قيل ذاك بفترة وجيزة- أن المنزل قد اضطرب بشدة؛ نتيجة لهذا الاهتمام، إذ كان يبدو شبيهًا بهم؛ عندما مسحت أمهم وجوههم بمنشفة.

أخذت تفكر: "لقد رغبت فيه ليلة أمس"، "حقًا، ثم لا أعرف ماذا حدث". لقد تبخرت الرغبة بددًا، أصبحت باردة؛ كما لو كنت مُخدرةً عندما بدأ يلمسني، فحاولت أن أكون صبورة مع بعض الإغراء؛ لكن بدا أنه يعرف فتوقف، ولم يقل شيئًا، ويمكنني القول إنه كان غاضبًا، ليس مني بالفعل، وإنما كان طيبًا جدًا هذه الفترة، ولم يبدأ معي شيئًا من هذا قبلاً، ثم بدأت أنا هذه المرة؛ عندما شعر أنني لا أريد ذلك، ولا أدري لم أفقد لمسات يديه. يا إلهي إنني أفقدها."

لقد بدأت - الآن - هذا الأسلوب من التفكير، كما لو كانت تخاطب نفسها بصوت عال، ومثل وجه مؤطر بالمرأة؛ أخذت تحدث ذاتها، بوصفه وسيلة للسيطرة، والتحكم في النفس، وتقييمها: "في محاولة للوصول إلى

معنى لهذا كله"، فإن النساء تدركنهن الشيخوخة بسرعة؛ عندما يكبرن. إنها تشعر بجسدها يتحرك تحت النسيج الخشن لقميصه، الذي ارتدته - على عجل - لتنهض من السرير، وينعكس في المرأة خلفها، ذلك السرير غير المرتب. وتعود لتشعر أن جسدها الناعم، يمتلئ بالمياه التي تتساقط مع العمر. مُحال أن ينظر إليها الآن فتواتيه المشاعر، التي كان يحسها نحوها في الماضي، ولسوف يرغبها بسبب عنايته بها الآن، لا بسبب رغبته فيها، ويبدو الأمر كما لو كان سماحاً لامرئ بالفوز في لعبة ما؛ إذ إنه من المحتمل ألا يرغب في جسدها، لذا تتساءل عن إمكانية قص شعرها، ليصبح قصيراً مرة أخرى.

أحياناً ما يخرجون في مرج، عندما يندمجون مع عجل جديد، يذهبون في خفة، ويفعلون شيئاً ما. من المستحيل أن تخمن ما قاموا بفعله، إذا ما حاولت التفكير بطريقتهم؛ لأنهم لا يفكرون عندما يفعلوه، إذ إنهم لو قرروا الذهاب؛ فإنهم يستطيعون المضي - لمسافات بعيدة، يتعثرون ويتخبطون، ولا يمثل لهم ذلك أي معنى، وكل ما يمكنك أنت عمله، هو محاولة العثور عليهم، وأن تأمل أن يكونوا بخير، وتفعل لهم ما في استطاعتك، أن تبقى قريباً منهم، وتتفقدهم، وغالباً ما يكونون بخير؛ ما إن يأتهم العجل.

كانت بقرة مُدرةً للبن، البقرةُ المَبْقَعَة الوحيدة، التي يختلط شعرها الأبيض بالأحمر؛ مما يجعلها تبدو حمراء تقريبًا - بلون الآجر - في حين كانت البقرات الأخريات بيضاوات، أو حمراوات، أو بيضاوات بخُلطة حمراء. لكن لم يكن لديهم الكثير من ذلك، وكانت غالبية البقرات من فصيلة: "الفريزيان"، الأبقار السوداء المخلوطة باللون الأبيض، كالتى تظهر في برامج الأطفال، التى جعلت "إيمي" تعتقد أنهم يشبهن ألغاز الكلمات المتقاطعة، وهم يحتفظون -الآن- بعدد قليل من البقرات؛ عقب تحديد حصة الأفراد منها، وكانوا قد جلبوا العديد من البقرات، ولكن عندما تحددت حصص الأفراد، توقفوا عن ذلك؛ إذ إنه قد أصبح من الصعب عليهم شراء تلك الحصة، غالية الثمن، كما أنهم كانوا يمتلكون بقرات جيدات، يحتوي حليبها على زبد جيد، يصعب معه أن يبقى الإنتاج منخفضًا، وإلا فعليك أن تدفع ضرائب كثيرة؛ حال كون إنتاجك فائضًا، وقد توقف العديد من صغار الفلاحين حولهم عن عمل منتجات الألبان، وتركوا ذلك للمزارع الضخمة، التى تميزها تلك الحصص الرسمية، وهم - عمومًا - يربون الأغنام، حيث باعوا الكثير من البقرات، وأبقوا على القليل؛ من أجل لحومها وألبانها -خاصة- لكن فيما بعد؛ كان ذلك من أجل الإبقاء على رصيدٍ من البقرات لديهم، وكان "جاريث" سعيدًا لأنهم احتفظوا ببعض من البقرات البلدية؛ لأنها كانت أقل جشعًا من البقرات "الفريزيان"، وكانت أكثر سعادة بالغذاء؛ لأنه دون حشائش المرعى، كان من الصعب تغذية أبقار من هذا النوع.

كيرلي^١

تمعن في الأرض الجافة، وهو يعلم أن الجو حار ملهب؛ بما لا يسمح بظهور علامات -الآن و لمدة أسابيع- من: آثار حوافر، أو أخفاف، أو مخلفات حيوانات. وأن فرصته الحقيقية؛ ستكون عندما يجد أثرًا حديثًا لبقرة، أو كسرًا في أحد أجزاء السور، يشير إلى أنها قد حشرت جسدها الضخم خلاله، وقد تظن -أنت- أنه من الصعب عليهن التحرك؛ مع كل هذه الحمولات الثقيلة في ضروعهن، لكنهن حيوانات ضخمة صلاب، يستطعن اختراق الأشياء؛ عندما يردن ذلك.

هاهو يلتقط حجرًا خشنًا صغيرًا، ويستخدمه في فك جديدة جبل، لا يستطيع فكها؛ دون استخدام إصبعه "المفقودة". إذ لم يستطع إيجاد إصبعه الجلدي، الذي كانت "إمي" قد اشترته له باختيارها الشخصي. في عيد الميлад التالي لفقده إصبعه الحقيقية، قائلة له إنه يقوم بأعمال كثيرة: "لذا يمكنه أن يقوم مقام إصبعك.."، لقد أحب ابنته من أجل هذا، من أجل طريقتها في تحويل المآسي إلى أشياء بسيطة، باكتشافها إجابات سريعة وبطريقة ساحرة.

يستغرقه فك الحبل وقتًا، أخذ يفكر الآن بالتدريج: "إن قوتي ستتلاشى"، وعندما يحرك البوابة تنهار وتتداعى مصحوبة بأنة صعبة. لم يغضب من البوابة، وهو ينظر بعيدًا نحو البحر.

ففي ذلك الصباح؛ كان قد شاهد الفجر، وهو ينبثق من الأرض، وكان طائر وحيد؛ يغني مثل طفل يتحدث إلى نفسه -وهو يلعب، وفكر في ذلك الليل الآخذ في الانتهاء، وفي العجل الميت الساكن، وفي البقرة المفقودة، وفي ذكريات والده، التي يقوم بقراءتها؛ عساها أن تُعينه على

^١ تَجَعَّدُ الشَّعْرُ

النوم، أو أن توقفه عن التفكير في أمور أخرى، مثل: الأرض التي يرغب في شرائها، وجسد زوجته الذي يرغبه، ورأى كم كانت مخيفة رغبته الشديدة في جسدها الليلة الفائتة، ولأن الرغبة سوف تزول، فمن الغريب أن تخفي سرّاً مثل: مدى رغبتنا في أجساد بعضنا البعض.

كانت الجبال الأكثر صلابة؛ تنتصب -وقتها- قائمة، مثل الغضاريف العظام، على مدى قريب أمام عينيك، ويسيل الضباب من أعلاها، منزلقاً نحو البحر الكبير؛ حتى يتحول إلى سحابة، ترتفع إلى السماء من جديد، وكان البحر أشبه بزجاجة مبتلة تحت الشمس.

وللحظة قصيرة -عند ذاك الفجر- انتشرت البرودة، مثل: دفقة أخيرة في أنفاس الإنسان؛ ثم هبط الدفء، جاء بطيئاً، وكاملاً، وحقيقياً، مثلما حدث طوال أسابيع سابقة.

يشعر الآن - والوقت لا يزال مُبكراً - بالدفء يكمن فوق أكتافه، ثم يسري هابطاً نحو الحقول المنحدرة. والبقرة غير موجودة هنا. العصافير تتجمع، وتغطس في ركن الحقل؛ حيث أزهر ربيع الطبيعة عشباً كاسياً وكثيفاً، مستمدّاً الندى من رحيق الأوراق.

اختصر الطريق عبر الحقل، وأسفل شجرة الحسك القديمة، ثم التوتة الملتوية المتعلقة بالتربة الجافة لضفة النهر، حيث كان المجرى جافاً كذلك؛ بينما تخرج المياه هنا وهناك، من باطن الأرض، مكونة بقعاً من الطين، المنقط بأعواد البوص الأخضر اللامع، وآثار أقدام الطيور، لكن الماء لم يكن يجري. وهناك متناثرات من الأصدا ف المكسورة، حول صخرة حادة؛ حيث جمع طير البكاشين هذه البزاقات؛ ليغتذى بها، وهو يحب أن يسمع هذا الصوت، صوت التكة الحادة الصافية، لتكسير الأصدا ف على الصخور؛ إذ يخلب لبه، ذلك الطير العبقري الصغير.

يتتبع مجرى النهر، هابطاً أسفل السور، الذي ينتصب بلا فائدة بين الضفتين، وعند الحقل التالي، حيث توجد البركة، تشرب العصافير من مياهها، وتأكل معها الذبابات الصغيرة، التي تطن في جماعات كثيفة، لأن الحرارة لم تشتد بعد، ويتذكر أنه نسي أن اليوم؛ عليه أن يذهب ليجمع البط، وربما يشعر مرة بالنسيم - قليلاً - وهذا العام أتت العصافير مبكراً. تأسره فتنة البحيرة، وجمال العصافير لبرهة؛ وعندئذ يدور - بعدما أدرك عدم وجود البقرة هنا - ويبدأ في رحلة العودة للمنزل.

في شهور الشتاء، تنساب المياه أسفل المجرى، جالبة معها القاذورات والحجارة، وهذه مع أوراق الأشجار المتساقطة، تهبط في الأخاديد والمصارف، حتى إنها - بعد فترة - تسدها؛ فيسيل الماء في فوضى عارمة عبر الحقول، حيث يُغذي الحشائش الرقيقة، ثم يغور في الأرض، التي تكون خصبة وسوداء هنا.

في نهاية الأسوار والمجاري المائية، تجد دائماً شجيرات الشوك بأزهارها الصفراء في مكان ما، لكنها تزهر بسرعة في الربيع، فأولاً تينع الصفراء منها، مثل: زهور السيلاندين، ثم أزهار النرجس، وبعدها تتبرعم الزهرات الهندية البرية الهندباء، وأخيراً زهرة الربيع، بعد ذلك تأتي الزهور البيضاء: ومنها زهرات شقائق النعمان، وجحافل من زهرات الثلج، التي تبدأ في التبرعم، ثم تُزهر أعواد نبات الستيتشورت فهذا اللون يغطي أولاً الأرض، ثم تليه باقي الألوان - مثل: البنفسج، والجريسات الزرقاء، والكاميونز، ووسط الغابات، قريباً من النهر؛ ينبت الثوم البري - في يوم كهذا - مع النسيم المتصاعد، بخفة متحولاً من البحر، باتجاه الجنوب الغربي، عابراً الحقول. وقد تأتي رائحة الثوم حادة ومُرّة؛ لكنها رائحة عبر المزرعة، مبكرة في الصيف، لكن الإزهار قد انتهى الآن.

كان الكلب جولش، قد اتبعه هابطاً الطريق، يقف ضئيلاً ونحيفاً بجوار البوابة، إنه كلب قوي، متأهب ناعم الشعر، وعلى بُعد قليل من الطريق؛ سوف يجد كيرلي الكلب الضخم العجوز، متكوماً، ومسترخياً تحت الشمس على الممشى. وذلك بعده بنصف المسافة - وهي تبعد بقدر ما يستطيع أن يذهب فقط - وقد بدأ الكلب سيره بسعادة وكله أمل، وسار عبر الممر، وراء الكلب الصغير، ثم على حين غرة؛ أنهكه التعب، ورقد -هناك- تحت الشمس.

ينظر الكلب العجوز متطلعاً؛ وهو يسمع عجيح محرك سيارة، تتحول بسرعة إلى الطريق عبر الحقل، وسمعتها "جاريث" كذلك. هناك جوع لطيف يسري بداخله، ويريد الآن بعضاً من القهوة، في حين ينتصب المنزل مخادعاً البصر عند التل.

وينظر عند موطن قدميه؛ فيرى الجير قد تراكم فوق حذائه الجلدي القديم، والجير لم يختفِ من الحقل؛ لأن المطر لم يسقط بعد، فينظر إلى الحقل، وإلى الأرض الجافة، ويطأها بقدميه، إنه قلق جداً على الأعشاب، إذ ليس من الصواب، أن تُطعم الحيوانات تبناً في هذه الفترة من السنة، مع قدوم الحملان والعجول الصغيرة للحياة؛ تحتاج الحيوانات إلى حشائش طازجة، ويعرف - أيضاً - أنه مع قدوم أول مطر، سوف يدفع الجير بعيداً، ويخرج من الأرض الجافة المتشققة.

أسقطت هي قطعة لحم الخنزير، في الوعاء الساخن، وأخذت قطعة اللحم تطرقع في الزيت المغلي، ثم بدأت تتكور، وتضع قطعة اللحم التي طهتها الآن في طبق قديم، ثم وضعت في الفرن الساخن؛ لتبقيها دافئة، وقطعة اللحم في الوعاء تطرقع، وتبزق في صخب؛ فقامت بإطفاء الموقد، حينها يمتلئ المطبخ بدخان أزرق خفيف.

قاموا ببناء هذه الزيادات في المنزل، وحولوا المطبخ إلى مكان لتناول الطعام -حتى الآن مازالت الحوائط، غارقة في نور الصباح؛ في حين ينفث المنزل الحرارة، التي اكتسبها خلال النهار إلى خارجه، وتبرز أوراق الحائط في قطع متفرقة منه، مثل لحاء شجرةٍ مهالك. هناك ندى خفيف، قرمزي اللون، يتناثر هنا وهناك، كل هذا ليس مهمًّا بصورةٍ أو بأخرى، وغير مقلق على الإطلاق، إذ لم يلاحظوا للآن؛ أن المنزل يتسم بتلك السمات، كالشجرة تمامًا. يوجد في المطبخ موقد؛ به عدة أنابيب للغاز، قريبة منه إلى درجة خطرة، ونافذة صغيرة، زاد سُمكها من فرط تكثف الأبخرة عليها، مُشرعة بصورة دائمة، لكنها لا تزال مضيّبة، ونتيجة حائط بها مناظر للمزرعة، هدية من صانع الأغذية، وهناك حوضٌ قديم، مصنوع في "بيلفاست"، في مواجهة الحائط، تخرج منه ماسورة عبر الحائط؛ لتصل إلى صنبور، يعلّق به خرطومٌ جاف، أخضر اللون، طوله نصف قدم.

تنبت أسفل الصنبور مباشرة الطحالب، والأعشاب الخضراء بكثافة واستقرار. وتجد قطع الفورمايكا، دائماً نظيفة، لدرجة أنك ترى التصميم الفني الغريب المتهالك فوق سطحها، وعليها آنية السكر البلاستيكية، وأكياس الشاي، والبسكويت - المسروق باستمرار - وبعض ألواح دولاب الفضيات، معلقة بصورة ما، مُثقلة بالأشياء نصف المستعملة، وعلب الفول، والفاكهة التي لم تُستخدم مطلقاً. فتقوم هي بمسح بلاطات الأرضية؛ في حين تستمع إلى طرقعات اللحم أثناء طهوه، وتمتد توسعات المطبخ، من الحجرة التي يُعد بها الطعام أصلاً، ويطلقون على هذه الحجرة - عادة - المطبخ أيضاً، لكن كل الأمور تحدث هنا، وترى مكان الجلوس، ومنضدة العائلة، والنافذة الكبيرة التي تطل على النصف الغامض الخشن للمزرعة من الخلف، وهنا أيضاً تُفتح رسائل البريد،

وتؤكل الوجبات، وعندما يتم عمل كل شئ، تنتهي واجبات الجميع ويدخلون في حديث متبادل.

تختلف بلاطات الأرضية للمنزل، عن بلاطات الأرضية للجزء المبني حديثاً، حيث إنها حمراء، مصنوعة من الطوب، وهنا ترى البلاطات قديمة، مربعات من الصخر، تحبها في غموض؛ بسبب ألوانها التي تكتسبها، تحت رعاية مَسَاحَتِها المبتلة الحانية. أحياناً ما تحب أن تظن أنها الوحيدة، التي ترى هذا، لأن هذه البلاطات تُبدى ألوانها؛ عندما تكون غارقة في البلل، ثم تجف بسرعة، لحظة تحركها عبر الأرضية، وهذه الطاقة الطفلية، ما تزال تمرّ داخلها، إنها متعة تحب أن تخفيها. تتراكم أكوام من القمامة هنا وهناك، ومجموعات ضئيلة من الأتربة، والأشياء المتساقطة، مثل: نشرات الأدوية، وقطع البنسات النقدية، وأربطة الشعر التي غطاها التراب، إنها عملية آلية تقوم بها؛ وهي منتظرة شئ ما، أو حال حديثها القلق، فتأخذ الفرشاة، وتزيح القاذورات من الأرضية، وقد جمعتها في أكوام متناثرة، وفيما بعد سوف تتناول سلة المهملات، وتقوم برفعها، وإلا جاءت القطعة ؛ لتهاجم تلك الأكوام، وتقاتلها بشراسة، ووفقاً لما يلتبسها من مزاج: إما تضحك من القطعة، أو تصرخ فيها.

تترك الفرشاة بجانب الباب، وتقوم بإخراج قطعة اللحم من المقلاة، وتضعها في الطبق داخل الفرن، ويمتد ممشى- الباب من المطبخ؛ حتى الفناء الخلفي للمنزل، وهو ما يأتي ويخرج منه الأصدقاء الطيبون والعائلة خلال النهار، وأسفل تلك الوحدات توجد: أجولة البطاطس، وأحواض وأواني تنظيف الأشياء المتراكمة، وقد صدئت واجهة الثلاجة وتعرجت؛ لكنها كانت تعمل، وبجوار تلك الثلاجة، وُضعت مجموعة من الأدراج، لا تلاءم الزمان، ولا المكان؛ تجمع السكاكين، والشوك، وباقي الأشياء، وبينما تقوم بتقطيع الخبز، لتضعه في المقلاة ؛ تتمنى امتلاك

مطبخ جديد، مطبخ يلمع مزهوًا بالنظافة، لكنها تطمح في الأساس إلى التناسق. خلف المنزل، وعبر الفناء الخلفي الصغير، المحاط بصبة الأسمنت المتكسرة؛ تنحدر الأرض لأعلى، وللحظة ترى النباتات المتسلقة، قد جفت وماتت من طول الصيف، ثم يصبح المنحدر حادًا، وتبدأ الغابة، وأوراق الشجر شديدة الكثافة، في هذا العام، وإلى جانب المنزل - حيث تستوي الأرض بعض الشيء- يوجد مرعى خصبٌ، وأرضٌ حصوية، تكونت من أحجار تخلفت من بعض الأبنية، التي لم يجدد بناؤها بعد ذلك أبدًا، ويمتد المرعى بطول الحافة الكبرى للجرن، ويضيع حيثما تبدأ شجيرات التوت البري، قبيل الغابة مباشرة؛ فتقوم بفتح الباب، كيما يتنفس المنزل، ويتطلع إلى المرعى.

رُقْعَةُ الْخَضِرَاوَاتِ

حيث يوجد النبات المتسلق الداوي، فوق المنحدر؛ عملوا بجد عندما كانوا صغارًا ليستفيدوا بذلك، أولاً: قاموا بتنظيف مسافة كافية؛ حتى لا تسمح بانتشار النار منها إلى الأشجار، ثم قاموا بإحراق النبات المتسلق الجاف، وشجيرة التوت البري، وشتلات شجيرات البندق الرفيعة، التي خرجت عن حدود الغابة، وقد فعلوا ذلك نهاية الصيف، ثم عندما أخذت الأمطار الكثيفة في الخريف تدفع الرماد، والأخشاب المتكسرة نحو الأرض؛ قاموا بحرث الأرض، واستمروا في الحرث يومًا كاملاً؛ حتى أنهكوا أنفسهم، وفي اليوم التالي؛ استأجروا آلة زراعية، وقاموا بتهيئة نصف الفدان من قطعة الأرض، وهو ما يُعد عملاً صعبًا، وقد ذكرتهم رائحة الآلة الزراعية بمحركات القارب، وكانت العصافير أول ما جاء ليلتقط البرقات، والديدان، وبدأت تدور حولها، وعندما دخلوا ليتناولوا قدحًا من الشاي، ويتحدثوا معًا في دماعة؛ جاءت الطيور الأكبر حجمًا، والأكثر فزعًا، وأصبحت الأرض مزدحمة، وأكثر جوعًا. هبط الصقيع، ولم

ينمُ شئٌ على وجه الأرض، وعندما انفك الشتاء؛ قاموا بحرث التربة المتشققة مرة أخرى، لتهويتها وتهيئتها للبذار.

قاموا بزرع بذور البطاطس، والكربنباالملفوف، وصفوف طويلة من البصل، والبنجر، والراديش، وكان لديهم جزر، وفجل مما يحتاج إلى تشذيب باستمرار، ويسبب متاعب كثيرة، ولديهم - كذلك - البسلة، والخس، حتى عند فشل بعضها في النمو، كان لديهم الكثير من الخضروات لأنفسهم، وقد زرعوا أيضًا شجيرات التوت، التي مازالت هناك الآن، لكن عليك أن تشق طريقك إليها بصعوبة، حينئذ وعند لحظة معينة، تتساءل بهدوء: "متى لم يقوموا بزراعة أي شئ بعد ذلك؟ ومتى استعادت الغابة هذه الأرض؟" ترى هل كان ذلك بعد الفشل الثاني، لكنها لا تتذكر.

الإِصْبَعُ^١

وضعت المائدة في الداخل، والسكاكين، والشوك، والأطباق في أكوام، على مفرش من نسيج الفينيل، وبدأت في قراءة قائمة دليل بعض احتياجاتها، وهي أشياء تأمل أن توقف تقدمها العمري، وتساعد على استهلاك مياه أقل، وتعاونها على أن تبدو أقل تعبًا، وتمنحها الرغبة في الجنس أكثر. بالنسبة لعمرها؛ هي امرأة رائعة الحُسن، لكنها لا ترى ذلك؛ لأن جمالها بدأ يهجرها، وهي تعلم هذا، دخل هو عليها، ماسحًا قدميه على الشبكة المعدنية، أمام الباب الخلفي، ليس بسبب حاجته إلى فعل ذلك؛ وإنما بسبب العادة، أو ربما يكون ذلك إعلانًا بحضوره، وإشارة يؤدونها دائمًا، دون التحدث بشأنها على الإطلاق، فلديهم الكثير من تلك الأشياء، عندما كانوا أصغر سنًا. تقوم — تشطيف غلاية القهوة، وتدفي

^١ وقد تكون (الأصبع)، بضم الألف الأولى والياء؛ وكلاهما صحيح معتمد، المدقق.

الكوب بهاء ساخن، من البراد البكرج، الذي قامت بغليه عدة مرات؛ بينما تقبع في انتظار عودته، ولم تقم بإعداد القهوة، أشياء عليها ألا تفعلها، لقد أخافتها القهوة بشأن قوة نكهتها، وطعمها عند إعدادها؟! فهو يُعد القهوة كل يوم لنفسه فقط، كما لو كان هو الوحيد الذي يشرب القهوة، ويجهز قدرًا كبيرًا من القهوة، في ذلك الوقت من الصباح، يكفّيه طوال اليوم، ثم يعيد تسخين الكمية في وعاء، كلما احتاجت للتسخين، وذلك يجعلها أكثر تأثيرًا، مع كَرّ النهار، ولا يستطيع أحد آخر أن يلمس الوعاء، وهذا ما يفسر لها عدم نومه، فإن أول أكواب قهوته كل صباح، مكون من بقايا قهوة الليلة السابقة؛ لأن طحن حبوب البن، يوقظ أهل المنزل، وهو لا يريد ذلك، ولأن مكان نوم الأطفال، يقع فوق السقف الرقيق للمطبخ مباشرة. يجلس إلى المنضدة، وقبضة يده مفتوحة، يحرك إبهامه فوق العقلة الأولى لسبابته، بالطريقة التي اعتادها؛ فيُحدث صوتًا، أشبه باحتكاك الجلد الجاف ببعضه.

ماذا عن الخلطة؟

فيرد: عليها أن تنتظر.. ويعيد حك إصبعه - وهو يفعل ذلك دومًا- عند المائدة، يتحدث أو يقرأ الصحيفة؛ و مقبض الكوب عالق بيده، لدرجة أن ذلك الجزء من يده أصبح ناعمًا ولامعًا؛ كلما كان في راحته، ويقول:

"أنا لا أعرف.. لقد فحصت كل الأماكن المعروفة، لكنها لم تكن موجودة هناك، لقد ركبت رأسها و ذهبت"، ولم يخبرها شيئًا عن العجل المولود؛ ميتًا تَوًّا. فتقول:

"من الطبيعي أن يكون اليوم، وكان عليّ أن أنهض لفحص ذلك"؛
يرد بهدوء: "كانت ستذهب على أية حال".

ينظر إلى الجزء المفقود من إصبعه الصغير؛ ويُحدث نفس الصوت بإبهامه مرة أخرى، ومازالت هي تلوم نفسها؛ لكونها السبب في خسارته، إذ كان يحاول أن يفصل أنبوب النزع "سحب المياه"، عن الجرار الجديد، وقامت هي بحركة ما، في اللحظة التي علّق فيها الترس بيده، وبتر الإصبع. يتناول رشفة كاملة من القهوة، كان الجرح كاملاً، ونظيفاً؛ فاندمل جيداً، وكان من الممكن أن يفقد يده، هذه هي الطريقة التي ينظر بها لما حدث، وهو يحب ذلك بصورة، أو بأخرى. كانت قد أحرقت الخبز؛ فذهب ليخبز غيره، بينما حاولت معالجة الخبز الذي احترق. وأخذت تقول: "إن الطبيب البيطري قد اتصل بشأن الكلب كيرلي..". رد: "ياه..."

أضافت: "إنه يريد الحضور اليوم".

إنه يعلم أن الطبيب البيطري، سوف ينهي حياة الكلب العجوز، ليس اليوم كما يظن، إنه لأمر صعب؛ أن يفعل ذلك اليوم، آه لو كان يستطيع العثور على البقرة؛ فيقول لها: "يجب أن تتناولي بعض الفطور". يا له أمر غريب، أن نأخذ الأسماء السخيفة للحيوانات، مأخذ الجد. فرقع صوت سُقاطة الباب؛ ودخلت "إيمي"، مرتدية قميص نومها، وعباءتها مطوية بيدها، وإبهامها في فمها. تتوجه -في تناقل- نحو المقعد القديم، وتتكور هناك، وبصحبتها دميته، الشبيهة بالحمار الوحشي- المخطط، باللونين: الأخضر والقرمزي، إنها تهبط للمطبخ؛ كلما سمعت والديها يتحدثان في الأسفل، صباحاً.

فتقول أمها: "مرحباً حبيبتي"، وتبرق عيناها نحو أمها، وتنظر لوالدها مسرعة، وفي خجل يمر شئ سري فيما بينهم؛ فتبتسم وتجلس، ويوقفون الحديث عن البقرة. يجلس هناك حاكاً إصبعه، متطلعاً إلى عقلة إصبعه المتبقية، في شغف.

ويقول: "لسوف يكون الجو حاراً اليوم".

الفصل الثاني

المطر

سقط مطرٌ غزيرٌ هناك، مُبكراً من العام، خلال الخريف المنصرم؛ هبط المطر دافقاً؛ وامتلأت الحقول بالعشب، وعلت مجاري الأنهار مُسرعة. عند ذاك؛ وفي وقت معين، من صباح الحادي عشر من مارس؛ تغير شئ ما، إذ توقف المطر، وطلعت الشمس لافحة، سريعة المَرِّ، قوية الأثر، وهبت عاصفة مغناطيسية أرضية، ووقعت ظواهر كسوف الشمس، وصرعت الصواعق الناس، وأصابت أصحاب القلوب الضعيفة بالمرض، ومات بعضهم، وارتبكت الأجهزة العصبية الكهربائية في أجسامنا، وعند كثير من الناس أيضاً. في حين أتت العصافير مبكرة، وقد حطَّ في ذلك اليوم؛ سرب من الحمامات المندفعة، بينها يمامة بيضاء في المزرعة، أتوا فجأة، وللغربة كانوا تائهين تماماً...

أما "إيمي"، فإنها قد أحبت اليمامة الشديدة البياض كثيراً. ولم يوافق أحد - وهم ليسوا من الخبراء على أية حال- على وجود علاقة بين العواصف، وبين التغير الذي حدث في الأشياء، لكن عواصف

كهذه، بإمكانها أن تعطل السفن، والأقمار الصناعية. وكانت وزارة الحربية دائماً ما تراقب تلك الظواهر، وفي سجلاتها نجد مكتوباً: أن عاصفة ١١ مارس، كانت عاصفة مدمرة. ثم أمطرت السماء في مايو، ويتذكر جيداً رجال جز الصوف، القادمين لجز الأغنام - كانوا ثلاثة رجال- بعملياتهم وحركاتهم، التي لا توصف. وهبطت الأمطار فوق السطح الرقيق؛ في حين طُتت مقصات الرجال خفيفاً، لقد كان الهدوء سائداً. فقد جاء الرجال الثلاثة -أب مع ابنه- لجز صوف الأغنام فقط، يكسبون عيشهم، في مثل هذا الوقت من السنة، بالمرور على المزارع، يقصون صوف الأغنام، ويتقاضون ثمن ذلك، لذا قاموا بعملهم سريعاً، وقامت: "إيمي"، و"ديلان"، و"كيت" بجمع الصوف، وطّيه في أكياس، وأحكموا تلك الأكياس بمشابك خشبية، وأمسك "جاريث" بالنعاج، وساعده "بيل"؛ في حين يعمل الحلاقون عليها بسرعة - كان اسم أحدهم: "جويليم"، لكنهم نادوه "بيل". وكان الرجال يتوقفون بين آن وآخر؛ لتزييت مقصاتهم، وتبقى الأغنام مثبتة بصورة كوميدية بين أقدامهم، أو يسعون فيما وراءهم للإمساك بصبغة اليود؛ لمداواة جروح الغنم، فيما لو أدت عملية القص لجرح إحداها في غير اكتراث. كانوا يعملون بسرعة، لكن في يسر، كما لو كانت أجسامهم خُلقت فقط لهذا الغرض، ربما كانوا من أصلاب سلسلة طويلة، من جزازي الصوف. مسألة وراثة، وعندما توقفوا لتناول الطعام؛ لم يتبادلوا الحديث، مجرد كلمات شكر واضحة متواضعة، لكن لا حديث، كانوا رجالاً كاملين.

الفصل الثالث

البطّات

دقت الثالثة صباحًا، ولم يكن سعيًا بخروجه لإحضار البطات. نادته أمه قائلة: "عليك أن تخرج لجلب البطات، فإن البقرة قد تاهت، وعليك أن تخرج أنت لإحضار البطات". صرخ "ديلان"؛ ثم أقسم على أمه، لأنه عرف أن والده قد خرج إلى الحقول، إذ سمعه وهو يخرج بعد الإفطار مرة ثانية؛ بحثًا عن البقرة، كان قد أطلق سبًا بكلمات غير مسموعة، حتى إن أمه اضطرت للصراخ فيه متسائلة:

"ما تقول؟"

فأعاد ما قاله بصوت زاعق، لأنه يعلم أن ذلك يضايقها أكثر. ثم أخذ البطات متجهًا إلى البركة. كل عام يضعون مائة بطة عند البركة، هناك - فعلاً - دجاجات مغربية، ومعها بعض الدواجن، فتأتي الدواجن البرية الأخرى لتلحق بهن، مع بعض بطيطات الماء، الشبيهة بالسهام الرفيعة الصغيرة، جميلة المنظر، وسريعة الحركة، وعنيفة، على النقيض من البط كله. كانوا يغذون البط بالحبوب، ويقطعون أعواد البوص؛ حتى لا

يقترّب الثعلب من الدواجن، دون رؤيته، واعتنوا بها بدقة، ثم اصطادوا منها أعداداً كثيرة -بقدر ما يستطيعون- رمياً بالرصاص. هذا شئ جيد، فإن البطات يمكنها أن تُشكل تهديداً، والناس تغرهم البطات بهدوئها الظاهر، وتتساقط بسبب غبائها الواضح، في ابتساماتها وصيحاتها المجنونة:

كواك.. كواك..

لكنها أشياء خطيرة، تتجمع مع بعضها، مثل: مدمني الاجتماعات، والحفلات. في المدينة -وهي مدينة مينائية جميلة، على الطراز الجورجي غير كسولة، ممتلئة بالألوان- خرجت طيور البط عن السيطرة. والنهر يصدر من الوادي، هابطاً ببطء نحو السدود، وتحت كوبري الطريق، ثم إلى الميناء، وأخيراً إلى الشاطئ، وهناك مكان على أحد جانبي طريق الكوبري، حيث يمكنك -أحياناً- أن ترى تيار الماء، راجعاً عند دخول المد، وأحياناً -أيضاً- ما تأتي سرطانات البحر الضخمة: الكابوريا، وأسماك الموليت، في الجزء المالح من المياه المتلاقية، ثم تأتي جماعات البط بعدها عند مصب النهر... و بوصفها جزء من خطة عامة، لجعل القارة تبدو أفضل؛ نالت المدينة الصغيرة دعماً مالياً لتنمية نفسها، وقد بنوا ميناء لرسو القوارب الصغيرة، وقوارب الصيد، التي قد تبقى للعمل خلال الشتاء، الذي لا تمكث فيه السفن الغالية، مثل: اليخوت؛ بسبب رداءة الطقس هناك. وقد ملأت أسراب البط أركان الميناء، وأخذت في إخراج فضلاتها في كل مكان. كان هناك المئات من البطات، و عليك أن توقف سيارتك -أحياناً- لتتركها تعبر الطريق. أو تراها بالطريقة التي نعرفها في ممارستها للجنس. فمن الملاحظ أنك قد تجد بطاً ما هناك دائماً، والأكثر لفتاً للنظر أنها غالباً ما تمارس الجنس في الماء، والذكر يكاد يُغرق الأنثى، التي تركز انتباهها بشدة؛ كي تبقى طافية على الماء، وكلاهما يجب أن

يتعامل بـ: الأجنحة، والمناقير، والمياه، والريش -أيضاً، ويبدو المشهد مفرغاً، لكنهما يستمران في التزاوج. لذا فإن هناك عدداً هائلاً من البطات، تتغوط أينما حلت. أصبحت مشكلة للسياح، أما المسؤولون المحليون فقد كرهوها، وتحدث الناس بذلك في الحانات، وإذا وقفت بطابور أحد المحلات؛ فسوف تسمع الناس يتحدثون عن البط، وعن آخر أخبار العنف الذي مارسوه، وإذا حاولت أن تشرب كأساً بهدوء في الميناء؛ ستجدها هناك، جالسة بلا إذن، تتطلع إليك مبتسمة في استهزاء مُستفز، حتى إنك لو نشرت غسيلك مرة، فإن هذه البطات تعلم - بصورة أو بأخرى - وتندبر أمرها، متحدية قواعد الطبيعة؛ لتلقي فضلاتها فوق الغسيل، وغائط البطة ليس شيئاً لطيفاً، إنه في اخضرار براز طفل صغير، استمرت تغذيته على نبات البروكولي لعدة أسابيع. وقد غطت البطات كل أسطح اليخوت الفخمة، وتدخل إلى إطارات العربات، بل إنها تتسلق عربات اليد، وتدخل أي مكان تراه مريحاً و مهجوراً.

الأطفال يخشون تلك البطات؛ لأنها لن تهرب منهم، لذا فهم لا يطاردها، حتى إن هذه البطات، تجلس باستمتاع وسط تلك الضجة الهائلة الممتدة، التي تقوم بها فرقة موسيقى المدينة، التي كانت تعزف الأناشيد والأغاني عشية الأحاد بالميناء. إنها تبدو بطات لا تقهر، وقد تم تشكيل لجنة، ظن بعض أعضائها؛ أن السبب في إخراج هذا الكم الهائل من الفضلات، هو قيام الناس بتغذية هذا البط بقطع البطاطس المقلية الشبسي، ومهما يكن من شأن أولئك الناس؛ فإنه ومن المفترض، أن تجد البطة غذائها في النهر، أو البحر، هذا هو المقرر لها طعاماً. لكنها كائنات كسولة، وعليه فقد حوّمت فوق كل ما يرميه الناس لها، تقاتل نوارس البحر في سبيل ذلك، وكذا تحارب الزراير، والحَمَام، حتى لو اضطرت

لمقاتلة بعضها. تلك الوجبات الفقيرة؛ تجعل البطات المسكينة تتأفف.
هذا ما قاله أحدهم، وقد كانت الإجابة:

"إن علينا أن نمدّهم بطعام أفضل، عبقرى..!"

وهكذا حاولوا ذلك، لكن تلك لم تكن الإجابة الصحيحة، لأنها التهمت الطعام المقدم إليها، وأكلت الأسماك، وشرائح البطاطس، ومارست الجنس أكثر من ذي قبل. لم تكن مؤخرات البط أكثر ضيقاً عما هي عليه الآن، ولكن المشكلة هي أنها أصبحت - ببساطة - أكثر عددًا، وإطلاق النار عليها؛ يمثل وجهة نظرٍ أخرى، فإن السم قد يقتل أي كائن آخر، في حين قد تستمر البطات في حياتها تستخدم مكرها كعادتها، لذا كان إطلاق النار عليها؛ هو الطريق الناجع الأكيد، للتخلص منها. وقد أصبح - الآن - إطلاق النار على البط - قل أو كثر - بنفسك أمرًا مشروعًا، عالمين أن ذلك يجب أن يتم سرًا، أو هكذا تخبرنا الأسطورة، باعتبار أنها واحدة من القواعد العديدة، التي يعرفها الناس بالفعل.

وعند هذه النقطة بالذات؛ تُعد البطات ملجأً للملكة، وإنها ملكية عليا على أية حال، وعلى كل؛ فإنه لم يَقم أحد بهذا العمل أبدًا، ولم يرغب أحد في أن يكون هو البادئ. إذ إنك إن تجولت حول أية مدينة جورجية، تضرب البط بالنار، فإنك سوف تُسجن سرًا. ثم إن هناك المشكلة الرئيسية، ماثلة في مواجهة النداء القائل: "أطلقوا النار عليها"، لأن البنادق تحدث ضجة عالية، ولن تكون صالحة لهذا العمل، وإذا طمحت - بإصرار أكثر - في الحصول على بندقية صيد؛ فلسوف تواجه مشكلة أخرى، سيكون عليك عندئذ - ببساطة - أن تكون قريبًا من البط، أكثر من اللازم؛ لأن البندقية مصممة بحيث تتلافى نقص اللياقة، في سلوك الإنسان، فهي تقتل الأشياء عن بُعد، ولو أنك أطلقت النار على بطة، من مدى قريب، بواحدة من تلك الآلات النارية؛ سوف تمزقها إربًا، مما يؤدي

لمزيد من الفوضى، أكثر مما تُحدثه الفضلات، غير إن الأولى؛ أصعب عند تنظيفها...فيما بعد؛ قاموا بخلط الطعام مع مواد مانعة للحمل شائعة. وحينما نتطلع حولنا للمدينة هذه الأيام، نجد أنه من العار أنهم لم يخلطوا قطع البطاطس كذلك. هناك قضية أخرى ضد البطات هذه، وربما يقول بعضهم عنها إنها بسيطة، هي أن المزرعة التي جمع فيها البط، بوصفها منطقة للعبور، تقع على تل منخفض، يطل على الخليج، دائماً ما تكون ملوثة بآثار النفايات المقاتلة، فالأمريكيون وأناس كثر آخرون، يأتون لممارسة الطيران هنا، وعندما يقومون بذلك، يبدو الأمر كما لو أنهم يمزقون رتق السماء، وأحياناً ما يكونون على مستوى منخفض؛ حتى إنك تكاد أن تلمسهم، وتستطيع -دائماً- أن تتعرف على وجود مشكلات لديهم؛ لأنهم يطرون بصورة قاسية وصعبة، وفي الليل؛ يمكنك سماع الأزيز الضخم لطائرات الهركيولز، وهي تُطيرُ الأشياء، وتثرها بعيداً. وعندما تمضي- النفايات على ارتفاع منخفض، في موسم الحمل لدى الأبقار؛ تُسقط بعض هذه الأبقار حملها أحياناً، ويأتي العجل الوليد ميتاً، وغير مكتمل، وإذا طالبت بتعويض، سيسألونك عن رقم الطائرة، والوقت الذي مرت فيه فوق البقرة بالضبط. عمومًا، النفايات تطير بسرعة، تتجاوز ثلاثة أضعاف سرعة الصوت.

اخترقت إحدى البطات النافذة الأمامية لإحدى الطائرات، وطحنت نفسها داخل قُمرة الطيار؛ فانقذف كابتن الطائرة إلى الخارج، وقام مساعده "الملاح" بقيادتها؛ حتى هبط بها في أمان، على بُعد ميلين تقريباً نحو الشمال، وقد تناثرت قطع من قمرة الطائرة، على عدة أميال حول التلال، ولم تصب أحداً بأذى، وجاء فريق من المحققين المختصين بحوادث الاصطدام، ومرة أخرى كانت هي البطات...أعطى ظهر النقلة - الحمولة- للبركة؛ فنَدَّ عنها صوتٌ، مثل الصوت الذي كان يؤديه، عندما

كان يُمثل دور عربة النقل في طفولته، والأقفاص ثقيلة، ممتلئة بالبط، والرائحة عفنة، رائحة تشبه أمعاء سمكة، تُطهى في بطن، خلف العربة الفان، فقام بإنزال الأقفاص؛ واحدًا تلو الآخر، على حافة البركة، ثم قطع أربطة الأقفاص، بخنجر وجده في العربة، وأطلق سراح البطات، التي لم تكن تعرف ما هي البِرْكَة بعد. خطت البطات في الماء واحدة وراء الأخرى، مضطربات مرتجفات، ففي الأقفاص تكدست داخلها، وتزاحمت فوق نفسها؛ حتى لتشم منها الرائحة البشعة، لقطع من الحيوانات. وعندما خرجت جميعها إلى الماء؛ كانت مرتبكة، ثم بدأت تتضارب قليلًا، وشعرت بأنفسها تنزلق، وبوزنها الثقيل هواء، هنا اشأبت أعناقها، وتمددت ورُفرف بعضها بجناحيه، ثم تحولت جميعها إلى بطات طبيعية، شئ حقيقي، إنها مرتهن الأولى في الماء. يراقبها عن كثب، توجد فراشات العذراء، وفراشات البترفلين، رقيقة كالنار، تطير في كل مكان حول البركة، في حين تصطدم الزنابير بالحشرات الأصغر منها في الهواء وهي تطير، وتزدهر نباتات البوص، بأعرافها الغريبة، وعلى الجزيرة ووسط البركة؛ بدأت أشجار الصفصاف، في إخراج بذورها، وكذلك نباتات الشوك القرمزية. من الآن فصاعدًا؛ سوف يجئ هنا في المساء، أحيانًا مع والده، ومهما حدث طوال اليوم؛ فإنه سوف ينتهي على خير. ولسوف يحاول - مع والده - عدّ البطات بلا فائدة. وسوف يشاهد تغيّر الضوء، والضوء الأبيض للبحيرة، وهو يغرق داخل الماء، والأمسيات سوف يقصر - مداها، وتتحول الزهور، إلى بذور خشنة، كما سيتوقف العشب عن النمو، بخلاف ذلك الذي نما كثيرًا في تلك السنة الجافة، وعندئذ - إذا ما سقط المطر - سوف ينبت عيش الغراب، الذي تحب أخته تناوله كثيرًا، لأنها تؤمن بحكايات الجنيات، سوف يأخذون - كالمعتاد - أجولة معهم لجمع ذلك الفطر، الذي لن يؤكل أغلبه، وإما سوف يحفظ، ويُحمل في أجولة

بلاستيكية. يقوم بحمل أقفاص الخبز، عائداً إلى العربية، إنه مرهق الآن لدرجة يتفصد معها عرقاً، والجو حار، وكل إنسان يضايقه الحر. يدخل العربية ويديرها؛ فهو يعشق أُنات محرك الديزل، يضغط على دواسة البنزين، ويتأرجح بالعربة بعيداً عن البركة، ويفتح الراديو عاليًا؛ ليقضي- على صمت المكان الهادئ، فتثور نبضاته، عابرة أعصابه، مرتقية خطها عبر نخاعه الشوكي، تمتلئ رأسه مرة أخرى، بصور الصدور المشدودة، الأذرع العارية، والتنورات القصيرة، والبشرات البيضاء، ترسل انعكاساتها الزرقاء، تحت أضواء الكسوف، لم يعد صغيراً الآن، فهو يعرف؛ وعليه أن يرغب في الذهاب بعيداً عن المنزل.

شعر "جاريث" بالرياح الباردة، وبالسُرعة التي تحدثها العجلة الرباعية، وهو يقودها نحو الحقول البعيدة، ويعلم الآن، أنه إذا لم يجد البقرة حالاً؛ فإن الأمر سيتحول إلى مشكلة، وقال لنفسه:

"يجب أن أطلب المساعدة من بيل للبحث عنها؛ لأنه يحب ذلك".

لقد زار البنك أمس، ووافقوا -هناك- على مبدأ أن يقدم العطاء للسبعة أفدنة

من الأرض، التي تجاور الطريق، قريبة من مقدمة حقله، وبجوار هذا الحقل؛ سيقام مزاد الأسبوع القادم، وذلك ما احتل تفكير "جاريث" كثيراً. كان ذلك على الجانب الآخر من الطريق المواجهة لأرضه، ويمتد في شريطٍ طويل، عمقه حوالي فدان، حيث يتسع الطريق تمامًا، بالقرب من القرية، ورغب فيها كي يبني عليها، أو -على الأقل- يريد أن يبيعها مُقسمة إلى عدة قطع، ويدرك أن ذلك لن يتم بسرعة، وملاه الأمل بالأّ تكون الفكرة، قد راودت آخرين؛ وإلا فسوف يجد عطاءات مقدمة، أكبر مما سيقدم هو، لكنه إن استطاع الحصول على الأرض، ومن ثم تخطيطها وتقسيمها؛ فإنه سيجني - من وراء ذلك - ثروة كبيرة. فإن القرية سوف تنمو،

ويدرك جيداً أنه لن يقوى -جُسمانيّاً- على الاستمرار في الزراعة للأبد. من بعيد؛ سمع البطات تنزل إلى الماء، وراوده فكره:

"لو أُنِي أستطيع أن أحصل على هذه الأرض، عندما تمتد القرية في ذلك الاتجاه؛ سوف أتقدم للحصول على تخطيط عمراني لأرضي".

لقد وضعوا بالفعل حدوداً للسرعة كعادتهم؛ قبل أن يسمحوا ببناء مساكن، رغم أنهم لا يصرحون بهذا. يأخذه التفكير:

"وأنا أستطيع الحصول على تقسيم تخطيطي، وأن أبيع تلك التقسيمات، وفي خلال سنوات قليلة؛ سيمكنني تأجير الحقول البعيدة، وبعض الأراضي، وأن أحتفظ بالمزرعة، مثل جزيرة وسط باقي الأراضي، دونها حاجة لأن أعمل مطلقاً، لأنني لن أكون قادراً -وقتها- على ذلك، وتقسيم الأراضي سوف يدر علينا نقوداً، فقط لو أستطيع الحصول على تلك الأرض"،

وتمنى بشدة أن يكفيه الاتفاق مع البنك مؤنة ذلك الحلم. أخذ يفكر في مذكرات والده، التي يقرأها ليلاً؛ لتساعده على النوم، وعلى جلب أصواتٍ ما، وسط هذا السكون، ويتساءل كم هو صعب وبطئ؛ أن نفهم أحياناً، وكيف للقواميس ألا تحتوي على الكلمات التي لا يعرفها، وكيف له أن يصل ما بين المعاني هنا وهناك، كما لو كان يسير فوق الأحجار، نحو مصب النهر، وهو يفضل أن يسميها ذكريات؛ لأن المذكرات تبدو عظيمة جداً، ومزيفة جداً في آن. يفكر في أراضى البناء؛ وهو يمسخ حاجبه بكم قميصه المطوي، وفي كيفية اعتياد والده، لعمله في البنك، الذي قام بالاقتراض منه، مع أن البنك قد أصبح عالمياً، وكيف -من خلال قراءته لمذكرات أبيه- بدأ يفهم أسباب زهد والده في كل شئ -كالوظيفة الجيدة تلك- من أجل إحضار أسرته هنا؛ لتنشئهم فوق الأرض

الطبيعية، وليس من الطبيعي هنا؛ تحت هذه الشمس أن تبدو الأشياء مُرهقة هكذا.

تذكر قصة، قرأها ليلة ما منذ زمن، مختلفة في جوها المتناقض عن هذا الحر المنتشر الآن، متألفة في اختلافها، اختلاف مع كل شئ آخر، يدور في ذهنه، إذ تبرز باعتبارها صورة واضحة، مثل الصورة الفوتوغرافية، داخل غرفة بيضاء.

المَلَكُ

لقد عرف المكان؛ من زيارات لأسرة أبيه، منذ عدة سنوات -حتى اليوم- حيث يجري النهر، تحت ما اعتادوا أن يكون جسرًا حجريًا منخفضًا جميلًا؛ قبل إعادة بنائه بلا سبب واضح، ويوجد في الجانب العلوي من الجسر -أعلى النهر- بركة ثابتة، حفرت لنفسها في أعماق الطين الصخري، وشلال الماء، عادة ما يكون هادئًا؛ ما لم تأت الأمطار بكميات غزيرة، تنساب من الحقول باتجاه النهر، كيما تزداد المياه ارتفاعًا، وهي تسقط أربعة أقدام - أو نحو ذلك- في البركة، أما في الجانب الآخر من الجسر، فإن المياه تجري بعيدًا.

فوق هضبة مكسورة غير عميقة. كان أبوه مع بقية الأطفال - يدرسون- في مدرسة الأحد "يا سجدول سول"، في حجرة صغيرة بجوار الكنيسة، وكان بها سبورة، ومدفأة غازية من الماركات الجديدة، تنفث هسيسًا رقيقًا، وهو الصوت الذي سيمنح والده -منذ ذلك الحين- شعورًا كافيًا ووهيمًا بالدفع، وكان ذلك في أحد شهور يناير القاسية، وكانت فصول الشتاء -في ذلك الوقت- شديدة الصعوبة، أو أن ذاكرة والده، هي التي زادت من قسوتها، كانوا حينها يرتدون السراويل القصيرة؛ بالطبع كان والده، من أكبر الأطفال سنًا هناك. جاء "تومي فولش" متأخرًا، وهو صبي في السادسة من عمره، قائلًا: "لقد رأيت ملاكًا عند الشلال"، قالها

مثل صبي يدخل لعبة مدرسية، وكلما كان "تومي" يتحدث -كما يتذكر والده- بدا كأنه يتلو إنشاداً؛ الأمر الذي منحه شعوراً بالسعادة، وذلك كما يتخيله "جاريث"؛ وهو يقرأ تلك المذكرات، ليشبه أولئك الأطفال المأساويين في الأفلام، الذين يُلقون أبياتاً من الشعر بتأثرٍ صاعق وإن بالمصادفة. لقد قال

: "إنني رأيت ملاكاً عند شلال الماء...".

كان مُقدراً لـ "تومي"؛ أن يرى ملاكاً مرة ثانية لاحقاً، عندما سقط في حفرة، ناتجة عن انفجار قنبلة ذات مساء، في أخريات أيام الحرب، وهو في نزعه الأخير، غير أبيه بالآلام جُرحه، الذي نتج عن فصل ذراعه عن جسده. مر به رجل، بظهره شريحتان، على شكل جناحين من المعدن المتوهج لدرجة البياض -هنا قال تومي: "ملاك"، قالها وهو في نزعه الأخير.

كان طفلاً رقيقاً ومرتعداً، ويبدو كالمنوم مغناطيسيًا، يقف متحدثاً في سرعة، يقبض ويبسط راحتيه؛ وهو يخبر واعظه: "تيجلا دافيس" ما رآه، وقد أنصت الواعظ له في هدوء، وكتب والده عنه، أنه يبدو عليه دائماً الإنصات، لصوت يأتي من بعيد، إذ كان هناك أحد عشر- صبيًا بالمدرسة ذلك اليوم، وأنه لن ينسى- أحد منهم أبداً؛ ما هم بصدد مشاهدته ساعتها. كان هناك صقيع زاخم؛ إلا إن الواعظ أخذهم معه، لرؤية ذلك الملاك، كان الواعظ رجلاً ذا صوت رقيق نقي، وجاذبية حازمة، أمدته بسيطرة- دون جهد- على الأطفال؛ فكانوا هادئين أثناء سيرهم.

لم تكن هناك أية إهانة مقصودة لتومي؛ عندما أخذهم الواعظ لرؤية شئ، كان من المحتمل ألا يتواجد أصلاً هناك. ولم يكن يريد -لبرهة- أن يبدو الصبي أحمر، أمام الآخرين، وبوضوح كان والد "جاريث" يتأمل الموقف، معتقداً أن الواعظ ربما كان يُعد الموقف لإبراز

درس ما، درس تعليمي على ما يبدو، وكيف أن الله يُعلن عن نفسه بطرق متعددة، وكيف تقوم الملائكة بزيارات العقول النقية -ربما- بصورة كافية، حتى في بهاء المياه، وكان ناجحًا في قيادة الأولاد للإيمان بالله، ليس بإجبارهم على الإيمان، وإنما بإتاحة الفرصة لهم لمشاهدة الأشياء التي يستحيل معها عدم الإيمان، ولأول مرة في حياتهم؛ يشعرون بما يشعر به الكبار من مشاعر مثيرة. عندما وصل الواعظ إلى الجسر؛ توقف، وتشبث بالحائط الصخري الأزرق، كان يرتعد؛ فالتف الأولاد حوله، وكانت مشاهد الفوران الرقيق للنهر أسفلهم، والصوت الهابط لذوبان الجليد، حيثما تغرب الشمس بضالة فوق البركة، الذي يغطي الأعشاب، بينما تجتاح الواعظ رعشة قوية، كانت هذه الصور، هي التي يتذكرها الوالد أكثر من غيرها، وكان الشلال متجمدًا، وهناك وسط الثلج، حيث يبدأ سقوط الشلال؛ توجد فتاة تمسك بالضوء، مثل خيوط العنكبوت، وشالها يلتف فوق كتفيها، وسط الماء المتجمد. مرت سنوات على هذه الواقعة؛ قبل أن يعرف الناس أن هذه الفتاة، قد انتحرت غرقًا، لأنها كانت ذات حمل، وظلوا يتحدثون عن ذلك في قرية والده إلى يومنا هذا. وبقيت تلك القصة، شاخصة في ذهن "جاريث"، لقد رأى أشياء كثيرة تموت، لكن لا أحد منها مات ميتة جميلة كهذه. ترك دراجته في مقدمة الحارة، ومشى- نحو الحقل الممتد، الذي يحيط بالتل، وكانوا يسمون هذا الحقل حقل القمة، وبأعلى الطريق؛ كانت توجد الأرض التي أرادها، وكان صوت جرار "بيل"، يهدرُ في الجوار القريب.

بيل

كان "بيل" يسكن في المزرعة المجاورة، وقد كَبُرَ مع "جاريث"، وكانت له أخت رائعة الجمال، في حين ترى "بيل" شديد البساطة، وعندما مات

والد "بيل"؛ كان عليهم مغادرة المزرعة، لأنهم اكتشفوا أن المزرعة ليست مملوكة للأسرة، ولم تكن تخصهم لسنوات طويلة، و لم يفهم "بيل" ذلك. كان والد "بيل"، قد استثمر مالا كثيرا، في تربية الخنازير، واقترض من البنك؛ لبناء حظائر لها، ومسلخ لذبح وتعليق لحومها، وهو عمل شديد القسوة، ويختلف -تماما- عن تربية ورعي الماشية والأغنام، التي قام ببيعها، ولكن بدا حينئذٍ أن الأموال المستثمرة في سبيلها سوف تجني عائدها.

كانوا يحتفظون -لفترة طويلة- بخنزير واحد، ثم يقومون بتغذيته، وتسمينه، ثم يذبحونه، وبالتدريج تعود الأطفال هذه العمليات، وكان رأس الخنزير المذبوح فقط، هو الذي يخيفهم حينما يلاقونه، وعندما يتسللون إلى المخزن البارد، ويفتحون برميل التمليح؛ كانت قطع اللحم الرمادية المملحة، الطافية فوق الماء تزعجهم، وكان والدهم قد قرر تربية قطيع من خنازير ويلز، وهو نوع من الخنازير القوية الطويلة، ذات الأذان الممتدة، ذات فكوك واسعة، قام بحمايتها بصرامة، من هجوم الخنازير المحلية، التي جاءت من السويد، حوالي عام ١٩٥٠م، والتي كانت -للصالح العام- استثمارا جيدا أن تبدأ بتربيتها في رأسمالك، وكان يرى الخنازير في الخلاء، وقد امتلأت حقوله، بأقواس حديدية، مجهزة لتربية الخنازير، التي قال عنها والد "جاريث":

إنها تذكره بأكواخ شركة نيسان، وهناجر الطائرات.

وهذه الصورة أعجبت "جاريث"، وكأنها لسرية من الخنازير الطائرة. حتى عندما ازدهرت عمليات تربية الخنازير الويلزية، لفترة من الخمسينيات، وشجعت المربين على إنتاج نسل نقي الدم، والسلالة كالتى يربيهها والد "بيل"، رغم المشاكل المتراكمة لرعاية عدد كافٍ من الذكور والإناث، مع تجنب قيامهم بالتكاثر - بغرض التسمين- فقد أصبح

الأمر أكثر صعوبة، إذ كي يحافظ على تلك المجموعات نقية الدم والسلالة؛ كان عليه استيراد مخزون من عدة مصادر، مما كان يُعد مخاطرة كبيرة، وبالتدريج كان عدد الخنازير يتناقص -دون شك؛ فافترض أكثر وأكثر، في نفس الوقت الذي كان فيه إنتاج الخنازير منخفضة الجودة يتزايد بقوة -وهو الأمر الذي كان يقاومه بشدة- مما أدى لانهايار السوق، وانحدرت خطوط تربية قطعان الخنازير الويلزية، مع انخفاض نسبة ربحيتها.

أمّا القطعان التي نتجت عن التهجين -ازدواج السلالة- فقد قاومت بثبات، إذ أدت عملية تنمية جودة أجسام القطيع، وتطوير كفاءة الإنتاج؛ إلى تحسين السلالة، التي نتجت عن التهجين، وأصبحت مجدية اقتصاديًا، ومؤثرة سلبًا على أعمال والد "بيل"، الذي لم يقم أبدًا بعمليات التهجين -ولو بمستوى أحد الهواة، ومع الوقت، ارتدت عليه دعوته لنقاء السلالة؛ بظهور خنازير وليدة سخلات، ذات عيوب خَلْقِيَّة، أخذت كلها أسماء ساخرة، مثل أم رجل معوجة، وأم ديل ملفوف، وأم مؤخرة عمياء، وكلها تعود إلى انحراف جنسي للسلالة، ووسط حالة اليأس، عام ١٩٥٧م؛ أُنتج قطيعٌ من ذكور الخنازير المُرباة محليًا، والمجلوبة من الخارج، ولسخرية القدر؛ كان أصلها من الدانمارك، بدلاً من أن تكون سويدية؛ لأن الأصول السويدية، سرعان ما سببت مشكلات عظيمة خارج البلاد، ومنها: كندا.

فإن الخنازير المولودة انتشرت على جلودها تشققات دامية، ولها حوافر مُتكسرة، وتموت بسهولة من نزلات البرد، واستغرق تشخيص أمراضها وقتًا من الطبيب البيطري - المتخصص أصلاً في الأبقار- ليحدد أنه مرض: التكاثر الفطري الجلدي، وكان كل واحد في القرية، متأكدًا تمامًا أن الجينة القاتلة الكامنة المسؤولة عن ذلك؛ تسترخي داخل أجسام

الخنازير الداهمية. لقد صمد خلال هذه الفترة كثيرًا، لكن مع سنوات قليلة تالية؛ بدأت الخنازير في الموت.

شخصوا مرض الخنازير هذا -وهو ما أطلقوا عليه اسم ماسات الخنازير- بأن الجراثيم التي تسببه؛ يمكنها أن تعيش في حظائر الخنازير المريضة، وفي الأراضي التي عاشت بها لسنوات طويلة، ومن هنا استنتجوا أن الخنازير التي دخلت البلاد؛ هي التي جلبت هذا الوباء، وفي إحدى أطوار هذا المرض، يتحول لون جلد الخنزير؛ إلى مناطق قرمزية غير مستوية، تبدو - من الوهلة الأولى- وكأنها مرض: التهاب الجلد، ومن هنا لا يُعالج بصورة سليمة، وتمتد تلك المناطق القرمزية إلى ظهر الخنزير؛ ثم إلى جانبي الجسم، وبعدها إلى البطن، حيث تبدو كقطع الماس تقريبًا، ومن هنا أخذ المرض هذه التسمية، وفي المرحلة المتقدمة المزمنة من المرض؛ تتأثر مفاصل الخنزير، مسببة حالة من العرج، أو تقوم الجراثيم بمهاجمة صمامات القلب؛ مسببة الأورام الزهرية فيها؛ حتى تصيبها بالفشل، ويموت الخنزير، وكان الطبيب البيطري ينظر إلى القلوب الميتة، ويكتب تشخيصه الخاطئ لفترة طويلة.

أصبحت الخنازير مكتئبة، وضعيفة، ثم انهارت، سوف تموت خلال يوم، أو تموت فجأة، لقد كان ذلك -حقًا- أشبه بمرض موليري القلبي، وقد أكد الطبيب البيطري المساعد؛ كل ذلك عندما قام بتشريح أكباد، وقلوب الخنازير المتورمة المبقعة، مختلطة بالنزيف الدموي. تمت تصفية القطيع، وبيع اللحم الصالح منه، وسلم والد "بيل" كل ما يملكه من مال للبنك، وبعد سنوات قليلة أطلق على نفسه النار.

قبل أن يحدث ذلك؛ قامت مزرعة أخرى بشراء المكان وتقسيمه، واستخدموا جزءًا كبيرًا من الأرض لأنفسهم، وتركوا الأسرة تقيم بالمنزل

على سبيل الإيجار، كما تركوا أبقار المزرعة، على جزء من الأرض، ولم تعلم الأسرة أن الأرض لم تعد ملكها، إذ أبقى والدهم هذا الأمر سرًا.

حين مات الأب؛ لم يستطيعوا إدارة المزرعة، بعدها قام الملاك الجدد ببيعها، وكان على الأسرة؛ أن تنتقل إلى منزل صغير بالقرية، لكن "بيل" لم يستطع أن يتواءم مع الوضع الجديد، إذ كان "جاريث" يجده متجولاً، حول المكان القديم، مذهولاً في الليل، أو في النهار، بين أطلال البيوت، كما كانت عند ذاك الوقت، وحول البيت المخلقة أبوابه. وهكذا منح والد "جاريث" قطعة أرض لبيل، وقام بتسوير بعض الأفدنة بجوار الطريق، وقال لبيل إنها أرضه الآن، لكنه لم يستطع أن يزرعها؛ لذا أخذ الحملان، التي فقدت أمهاتها، وبدأ يربئها هناك، وكان يساعد في بعض الأعمال، عندما يحتاجون إليه، مثل: موسم جز الصوف، وكان يقطع الحشائش للعجائز بالقرية، أو يستولي على فؤوس الناس، وبعض زروع الكرنب لكن في داخله - وكما يعرف جاريث - كان لا يفهم شيئاً مما يحدث.

لم يتوقع "جاريث" أن يجد البقرة هنا، لكنه احتاج أن يتحقق من ذلك؛ كي يستبعد هذه الفكرة، لأنه كان من السهل عليه أن يبحث هنا، ولو كانت غير موجودة؛ فعليه عند ذاك أن يفتش في الأرض السبخة بالمستنقع، ولم يرغب في فكرة أن تكون البقرة في الأرض السبخة، وتمنى أن يجدها هنا، لكنه يعلم أنه لن يجدها.

وأراد أن يجدها قبل أن يحضر الطبيب لفحص الكلب كيرلي، ولأنه موجود الآن في الحقول البعيدة؛ يستطيع أن يسمع صوت العربات القادمة، ويعلم إذا ما كان الطبيب قادماً أم لا في نهاية الحارة؛ لأنه يعرف صوت عربة الطبيب الفان القديمة؛ فعندئذ سيأخذ دراجته متأهباً للعودة، ويعرف كذلك أنها - أي البقرة - سيكون لها عجلٌ ما بطريقة أو بأخرى، ولم يقلق بشأن البقرة - في قرارة نفسه - لكنه كان أكثر قلقاً، بشأن

الحالة التي ستكون عليها "كيت"، وما يمكن أن يحدث لو لم يجدها، ويعلم أنه كان يتطلع إلى بداية الحقول، في حالة ما جاء الطبيب، كما يعرف - في داخله - أن البقرة لن تكون هنا، وأن عليه أن يبحث عنها في المستنقع.

إنه يرقد مستيقظاً الآن -لأن الوقت مازال ليلاً- وأعرف أنه يفكر في البوابات غير المعلقة جيداً، وفي الحشائش الميتة، ولربما يفكر -كذلك- في جسدي، وكم أصبح بدينًا، وفي الليالي الأخرى: يقرأ...ويقرأ ويقرأ، وعلى ضوء المصباح، ينظر إلى مذكرات أبيه، التي ليست بمذكرات، وإنما مجموعة من الأشياء التي يتذكرها. أظن أن ذلك كان صعباً عليه، أن يقرأ تلك المذكرات، أو الذكريات التي خطتها يدُ الرجل الكبير، إذ كان عليه أن يفك شفرة هذه الخطوط، وأحياناً مفردات اللهجة الويلزية؛ لأنها لغة صعبة -غالبًا- حتى بالنسبة لمن يتكلمها، رغم أن لديه قاموس مدرسة ديLAN القديمة بجوار سريره، وأستطيع أن أسمعه يتحسس بحثًا عن معاني الكلمات، كما لو كنت راقدة بجواره، عندما ظن أنني نائمة...

obeikandi.com

الفصل الرابع

عَامِلُ الْمَزْرَعَةِ

عقب إجهاضها الأول؛ لم تكن بخير، وكان الأمر غريبًا؛ لأن "ديلان"، الذي كان جنيًا؛ قد بدأ حياته بقوة، وهما مكتملاً ومتحرّكًا بصورة سليمة، داخل بطنها، ولم تكن تشكو من أية أمراض؛ قبل مجيئه، مثل كثير من النساء، كما لو كان جسدهن، ينظف نفسه بإطلاق الفضلات المهملة داخلهن، طوال عشر سنوات أو ما يقرب من ذلك، حتى يبدأ جسدهن منتعشًا وخصبًا؛ لكي يقدم طفلًا سليمًا، له جسد ناشئ نظيف، عندئذ بادئتها نوبات الصرع، كانت النوبات نادرة، لكنها كانت قاسية. حاولوا الحصول على أخ، أو أخت لابنهما، واستمرا في المحاولة ببساطة - في مبدأ الأمر - ثم بالحاح أخذ في التزايد، وقد أجهضت مرتين، وفي الثالثة أخبروها بأنها لن تتمكن من الإنجاب، كانت في الرابعة والثلاثين، رطبة كالخريف، ليست مبتلة كالنسوة الصغار، كانت كالربيع، ربيع رطب، خصب ومُنبت. ولم يكن يبدو صحيحًا تمامًا، أنها لن تحمل بعد ذلك، كانت ولودًا ونهمة، مثل أوراق الشجر المتساقطة. وعندما استأجرت عاملاً زراعيًا؛ كانت في حالة غضب وتسلط، وكان "جاريث" بعيدًا عن المزرعة

ذلك اليوم. كان عامل المزرعة أصغر منها، وذا عيني زرقاوين، ممتلئ ريان البدن. قَبَلَه "جاريث"؛ لأنه بعد الإجهاض، قد ازدادت نوبات صرعها. تساءل "جاريث" عما إذا كان ذلك يحدث؛ بسبب أنها لا تستطيع أداء أعمالها، كانت تحب زوجها كثيراً؛ لكنها كانت تعيش في الظل، وكان عامل المزرعة موجوداً هناك. عندما لمسها قبلته بقوة، واندفعت بين ذراعيه، وعندما مزقت صدريتها، حتى يرى ثدييها مكتملين؛ نظر إليهما مسكوناً وخائفاً مما كان قد بدأه، فأخذته بين ذراعيها، وخلعت ملابسها، وتركته يقودها خلف إطار ذلك الجرار المتهالك، وعندما تم كل شيء؛ شعرت بالغثيان، أما هو فقد جلس إلى المنضدة مذهولاً؛ فسحبت ملابسها، وحذاءها طويل الرقبة، وهُرعت عارية القدمين، تبكي عبر الفناء نحو المنزل. وفي الحمام أخذت تتقيأ مرات، ومرات، وقد جرحت نفسها - لأول مرة - حيث وجدها "جاريث" راقدة تحت الدش، مع جرح ممتد فوق ذراعها، وقد بدأت تتجمد الدماء عليه، ولم تستطع أن تبدأ معه الكلام. مر عامان؛ قبل أن تتعافى من جديد، لكنها مازالت تشعر بالغثيان؛ كلما تذكرت ما فعلته، وتملكها الشك المؤلم أحياناً، ولم تعد الأمور إلى ما كانت عليه مطلقاً بينهما، أما هو؛ فقد ألقى اللوم على واقعة إجهاضها.

إيمي

كان من الصعب تربية "إيمي"؛ في الوقت الذي وقعت فيه "كيت" مريضة، كان قد أخرجها من أسفل الدش، ونظف جرحها، وقاما بممارسة الحب بنعومة شديدة؛ بعدما انخرطا في معًا البكاء، وقصت "كيت" شعرها؛ حتى أصبح قصيراً وحاداً، لكنها مازالت تتكلم قليلاً، وعندما حدث الحمل بعد أشهر من الخطر، أضحي "جاريث" سعيداً، وولدت "إيمي" في الربيع.

الماء

اختصر "جاريث" الطريق عبر الحقول الواسعة، وهو يعلم أن البقرة لن تكون هناك، وعبر أسوار النباتات؛ حيث توجد الشقوق المتسعة الجافة، ويستطيع عند الضفة الجافة، أن يرى الفتحات، التي قامت بحفرها حيوانات ابن عرس، والمدق، الذي بسطوه بأقدامهم، ويمكنك أن تجد وسط أشجار الشوك السوداء، أو هنا وهناك حول السور، شعيرات رمادية جافة، يتداخل فيها الأبيض والأسود، لو دقت النظر. ويمكنك - أيضًا - رؤية خط آثار القش، والأعواد الجافة، التي سرقوها من مزاد البقر والأغنام؛ لصناعة أسرة نومهم، التي يحتفظون بها نظيفة بعناية، أو ترى قطعًا من السرخس الأحمر - فإن هناك شجرة منها يعرفها جيدًا - وهي قديمة، حيث تذهب بنات عرس هذي إليها؛ لتنظيف مخالبيها وشحذها؛ لتظل حادة، وتكلم القطع المتناثرة من السرخس، مع بعض الطين الجاف على لحاء الشجرة، وكان كتومًا لسرء أماكن وجود هذه الحيوانات؛ حتى لو كان نقلها المرض لماشيته وأرضه، أمرًا محتملًا. في الحقل الثالث، القريب من محل إقامة "بيل"، يوجد شريط واسع من الحشائش الخضراء اللامعة، التي توازي مجرى مائيًا جوفيًا، يصل حتى مصب النهر، هناك ينابيع ممتازة كثيرة، توجد على أرضه، فإنه ملحوظ، رغم إنها قليلة هذا العام؛ إلا أنه يدفع ضريبة كل عام، للمياه التي يجلبها من أرضه الخاصة، حيث تغمر الأودية الممتلئة بالمزارع والقرى مرة؛ لتمنح المدن مياه ترويتها.

راشيل

يرى "بيل"؛ وهو يصعد فوق الجرار الـ "فوردسون" القديم، وحيا كل منهما الآخر، ولو نظرت إليه الآن، تراه بائسًا، وقد نحل جسده؛ لدرجة

أنك تراه متماسكًا بواسطة ملابسه، وعند أرضه، وبين فوضى التعريشات المملتئة بأدواته، تشعر -أحيانًا- بأنه يمكن أن يذوب في الهواء الصافي، مثل العديد من أوراق الشجر الزاوية، ومن الغريب بالنسبة لجاريث، أن يفكر في أنه قد رأى هذا الرجل، في أغلب سِنِّي عمره؛ كَثُرَتْ أم قَلَّتْ، إلا إنه لم ير أخته لسنوات طويلة، كانت: صغيرة، وبديعة. وفي سن السادسة عشرة؛ عندما انتحر والدها بالرصاص، ولم تكن تحب أمها، التي لم تستطع تحمل نموها السريع؛ فغادرت المنزل لتصبح مضيقة في الطيران، وبدا الأمر، كما لو كانت تريد أن تثبت خطأ الأشياء كلها: تأثير الأرض على الناس الذين كبروا هنا، وتأثير المكان بما يحتويه من معانٍ زاخمة. لم يغفر "جاريث" لنفسه - أبدًا- ما حدث، لقد كانت تصغره بعام أو عامين، قام بإنقاذها من مخاطر عديدة مرات -لا يذكر عددها- من القراصنة، والهنود الحمر، والتنينات.

قد كبرت، وهي متوقعة أن تؤخذ إلى مكان بعيد، وذات يوم كانا يختبئان في جرن القش، ولا يذكر ماذا كانا يختفيان؟ وكانا غير ناضجين بما يكفي، لإدراك أنهما قد بدءا بالفعل، عمليات الاختباء من العدم، لمجرد أنهما يريدان -فقط- أن يكونا معًا، ويشعران بقلبيهما، وقد تسارع نبضهما، وأمسكا عن التنفس محاولين ألا يتبولا خوفًا. كانا فوق قمة كوم القش، وكانت هناك فضلات فأر، وفضلات عصفور بيضاء باهتة، وبعض من الريش، مسلط عليها أعمدة من الضوء القوي، تتسرب من الألواح المكسورة للجرن، و بدأ يشعران ببعض اللسعات، والحُكَاك وسط القش بسرور طفلي، كانت ترقد بجواره، مرتدية رداءً أزرق، كانت تلبسه طوال الصيف، وإذا ما اتسخ، كان يجب غسله؛ كيما تتمكن من ارتدائه في اليوم التالي مباشرة. و دون أن يعرف سببًا؛ شعر بجسده ينتفض، ورغم أن وجهه تورد خجلًا، وحاول إخفاء ذلك؛ ألا أنها رأت عضوه يزداد انتفاضًا؛

فمدت إصبعها، وضغطته؛ حتى أصبح مُحَرَجًا بشدة - حدث كل ذلك فجأة - وكان الأمر مزعجًا؛ فانسَل من كومة القش، وفر هاربًا، ولم يحدث شئ بينهما، بعد ذلك.

حَيَوَانُ الخُلْد

منذ أربعة أيام؛ وَجَدْتُ "كِت" خُلْدًا، أَحضرته القطط إلى المطبخ مِيتًا، والقطط لا تأكل حيوانات الخُلْد؛ لأن مذاقه سيئ جدًا عندها، لكنها أَحضرته للمطبخ؛ باعتباره هديةً، كان يدهشها هذا المدى، الذي تكون عليه حيوانات الخُلْد من النظافة، بفرائها القرمزي، الذي يمكن تسويته في أي اتجاه، وقد غضبت جدًا من القطط ؛ لقيامها بقتل حيوان جميل وأعمى، لكنها - أي القطط - لا تدرى أنها لو أُمسكت بفأر؛ لنالها وعاء من اللبن. قامت "كِت" بقذف جثة الخُلْد خلف الجرن ؛ فاكشف الذباب وجوده في الحال، وهذه الذبابات الخضراء - التي تتغذى على جروح الأغنام- تضع بيضها في هذه الجروح، مثل هذا الوقت من العام، لدرجة تجعل الأغنام؛ في حالة نوم طوال الوقت وضعت بيضها هذه المرة في جثة الخُلْد وهي آخذة في التعفن، وجفت مساحات الجلد على وجهه، ويديه، واستطالت، والتهمته الخنافس؛ ليتحول نصف وجهه الآن إلى عظام؛ حتى إنك ترى الأسنان واضحة خلالها، وقد تحللت العينان أولاً، وشقت يرقات خنفساء طريقها، وسط اللحم والأمعاء، وكل ما بداخله، سرعان ما ظهرت فتحة كبيرة، في أحد جانبي الخُلْد، وظلَّ الذباب يطن حوله باستمرار، حتى الطيور الصغيرة، أتت وأخذت بعضًا من تلك اليرقات، التي تتغذى على جثة الخُلْد؛ لتغذي صغارها، وأخذت الفراء؛ لتزين أعشاشها، كما التهمت الخنافس يرقات الذباب، وشقت لها نفقًا أسفل الخُلْد، وسحبته إلى أسفل، لمسافة ما، وقد نزعت الجلد؛ حتى إنك لتجد بعضًا من هذا الخُلْد تحت الأرض، وبعضه فوقها، إذ إنه كان

كبيراً جداً، مقارنة بالخنافس؛ لكي تلتهمه كله. ووضعت بيضها على مقربة، وقامت بتغذية اليرقات -التي فقسّت حديثاً- بقطع من لحم الخُلد مهضومة جزئياً. فيما بعد؛ شقت الخنافس مُدخلاً في الجثة المتعفنة، وعاونت اليرقات، الآخذة في النمو، على الدخول فيها، فليسوف تطعم نفسها، وعندما انتهى أكبر جزء من جسد الخُلد، الذي ذهبت به الحشرات الأكبر؛ جاءت جحافل النمل، تُنظف العظم، والأغشية من اللحم، ملتهمة معها اليرقات الضعيفة، كانت تعمل بنظام جميل، وبطاعة عمياء، كالخُلد نفسه، عمياء؛ حتى تلاشت كل أعضائه معهم في الأرض مرة أخرى، ترى - فقط- بعضاً من العظام المتروكة، بفرض أنك وجدتتها الآن.

الْقَطَطُ

ترى القط، وهو ينسل خُفية عبر المرعى. هذا القط الذي عذبه الأطفال كثيراً، بإرهابهم المعروف - بوصفها وسيلة للدفاع - تبنى موقفاً هادئاً بورجوازيّاً - إلى حد ما- هازئاً بالألم، وكان يتحرق غضباً؛ حين مزقوا كُرّاته، وفي تحدٍ واضح لضعفه؛ خطا حول المكان، بخطواته الوئيدة، كنمر جرى، إنها قدرة طبيعية منذرة بالخطر، أن تبدو كما لو كنت تستطيع أن تُلقي أثقالاً ضخمة إلى الأرض، بلطفٍ شديد؛ بينما استخدمت القطعة الأخرى - التي أصرت "إيمي" على تسميتها بسخافة - تكتيكات مختلفة، فإنها و لكونها أنثى كانت جميلة، كدرقة السلحفاة، بعينين دامعتين، ولم يفسد بناؤها الداخلي؛ أي شئ بتركيبه عينيها الجميلتين الطبيعيتين، كانت تحب "جاريث"، وقامت بإغرائه في كل فرصة أُتيحت لها، وكانت لعباً كأي شئ جميل، كانت هي الصياد. أما القط الآخر، فقد كان يحضر الأشياء الأكبر حجماً، مثل صغار الأرانب، ومرة أحضر - بصورة ملحوظة - نورساً، كما لو كان يريد القول: "إنك لو أردت فعل شئ فأنا

أستطيعه.."، لكن تلك الهبات الضئيلة المستمرة من القوارض، والطيور بطيئة الحركة، كانت هي التي تحضرها. كانت هناك قطعة ثالثة - وهي شقيقة للسابقين- لكنها تاهت؛ إذ إنها كانت ضعيفة منذ البداية، وكما هو متوقع؛ أحببتها "كيت" أكثر من غيرها، لقد تاهت في فترة عمل التبين من القش، ولا يريد أحد أن يصدق، أنها ماتت داخل آلة صناعة التبين هذي؛ لذا قرروا قبول فكرة اختطافها، بواسطة "متنزهي الإجازات"، كما يحدث غالبًا، إلا إن "جاريث" اقتنع بأن كلاب الجيران، قد استولت عليها.

النَّارُ

عاد "جاريث" من نفس الطريق؛ عساه أن يجد البقرة، وقد اقتحمت السور، لكنه يعرف أنها لم تفعل. لا يرى أية علامة تدل على وجودها، ومن السور - وهو يرى المنازل في مخيلته - يجد الرماد الأسود الساكن، المتخلف عن النيران القديمة، إذ تنشب في كل صيف يمر بعض النيران القديمة، في شجيرات الأسوار، حيث يقوم الناس باللقاء أعقاب السجائر من نوافذ سياراتهم. يلقون سجائرهم؛ ويمضون في قيادتهم، تاركين السنة اللهب تتراقص، وتبدأ في التهام الأعشاب الجافة للضفة، وتحولها إلى سور نباتي هش، لكنها لم تدمر شيئًا هذا العام. ويتساءل إذا ما كان الطبيب البيطري سيأتي أم لا، وقد أصبح الكلب كبيرًا جدًا، وهو يملكه منذ كان جروًا صغيرًا. عندما كانت "إيمي" صغيرة؛ اعتادت أن تجر الكلب حولها من أذنه، كما لو كانت تستعين به؛ لمساعدتها على المشي. كانوا يتندرون بأن الكلب، هو الذي علمها المشي. لا هم. والآن أضحي هرمًا جدًا، ولا يستطيع - حتى - تنظيف نفسه، وغما في جانبه ورم مؤلم، في حجم نصف كرة القدم، بالأمس عضه فأر؛ مما يستدعي حضور الطبيب الآن، لقد حان الوقت. يعبر فوق درجات السور، التي تربط بين الممشى-

المار عبر أرضهم - التي تشبه السهم الأخضر الغامض الغريب - وبينما يهبط تلك الدرجات؛ يلتوي كاحله، ألمه ذلك بشدة لمدة يسيرة، وشعر فجأة بالتعب والغضب، إذ لم يستطع التوقف عن التفكير في الكلب، وغالبًا ما كانت الأرض - هنا- محلاً لآثار كل مظاهر العبور، آثار: ثعالب، وقطط، وأحذية، وحوافر غنم تائه، أما الآن فإنه لا يوجد شئ من ذلك، ولا أثر واحد لأي حركة، ترى فقط؛ الأثر العميق لحافر حصان هنا أو هناك، انطبع منذ زمن بعيد، حينما كان الطين رطبًا، وبدأت الحقيقة الساطعة، حول فقدان البقرة، تغضبه بشدة، وهو يتبع الممشى، وأخذت صدمة كاحله تهدأ؛ لتتحول إلى ألم غامض، وعليه أن يكون حذرًا جدًّا، في الاستجابة لغضبه، فإنَّ غضبه يصبح عنيفًا، عندما يحل عليه.

يمر الممشى بين سورين من الشجيرات، لمسافة قبل أن ينفتح على الأرض البراح، ويتبع صفًا من أشجار الحسك الأسود، هابطًا إلى النهر، ومنه إلى الشاطئ، الذي مازال الوصول إليه، يستغرق بضعة أميال قادمة، وترى المشهد مذهلاً والأرض تمتد في رقة من بُعد، والبحر أمامك مباشرة، أزرق ينساب كالحرير على صفوف شجيرات زهور: القندول، المغرقة في اللون الأصفر، في ذلك الطقس، ووسط تلك الحرارة؛ أحيانًا ما يتضوع من شجيرات القندول، رائحتا: العسل، وجوز الهند، حتى إنه يمكنك سماع صوت براعم البذور، وهي تنفجر تحت ضوء الشمس، في طقطقة حادة؛ ووصلته الرائحة، وهو يسمع صوت البط في الماء من بُعد، وعربة النقل عائدة تشق طريقها - كما خمن - إلى فناء المزرعة، يفكر في ابنه، وهو يتطلع عبر البحر، لم يكن يرغب في العمل بالمزرعة؛ لكنه سيعلم يومًا ما؛ مدى روعة هذا المكان، هنا يرتفع عصفور، طائرًا أمامه - كصوت النفير - صوت ما، يصدر -دومًا- عنهم - مرتين فقط - قبل الصاعقة، لقد فقد شهيته للصيد، فلربما كان في مثل هذه اللحظة يتفقد

حزام بندقيته فوق كتفه، ويتخيل طلقة الصيد، ثم سقوط الطائر: "لو كانت به رغبة!". إنَّ جمال هذا الطائر؛ أمرٌ لا يُصدق، ويرى أمامه على مبعده منه شيئًا مميًا ومحطماً، شيئًا غريبًا، وعندما يفحصه يجده أرنب، تهشم جسده تحت ثقل قطع مكسورة من الأسمنت؛ فيحرق ناظرًا إليه؛ وهو يفكر في الكلب، أجوف الشعور للحظة، وبعدها يغضبه بشدة، فكرة أن الناس، قادرين على فعل تلك الشرور المذهلة.

الأرنب

جاء الولدان، ووجدا الأرنب يموت بجوار الضفة، كان النسيم يهب في خفوت، والجو صحو؛ لأن الطقس كان جافًا لفترة طويلة -ومازال- مُسجى مبللاً كأنه وسادة، أو ككلب منكمش عندما يتل، وقد ظناه مميًا في مبدأ الأمر؛ لأنه تكوّم كقطعة من اللحم، لا شكل لها، رآه الصبي راقدًا وسط الحشائش القصيرة، بجوار الضفة، و الفضلات الجافة، والآثار الزاحفة للأرانب الأخرى، وفوقها شجيرات الحسك السوداء الكثيفة المتشابكة، التي يبدو أنها على وشك الإثمار؛ فقال الولد: "ياه.. انظر.."، ولم يكن يرغب في أن يرى أخوه الأرنب، لكنه عرف أن الولد الآخر، لابد وأن يراه؛ لذا فإنه قال هذه العبارة. كان الولد الآخر، يقف بعيدًا عن الأرنب للحظة؛ ثم اتجه نحوه، وانحنى عليه، ولم يشعر أي منهما بالحزن لحظتها لموت الأرنب، كانت عيناه مفتوحتين، ولكنهما لم يتحركا، وحولهما كان النسيم، يهب في دفء، عبر شجيرات الحسك، يتهادى لسمعهما، صوت تكات جرار، يعمل عبر الحقول.

عندئذ حرك الأرنب إحدى عينيه. وتقدم الفتى الأصغر؛ لينبشه بإصبع قدمه، إذ أراد أن يفهم الأمر بصورة أوضح؛ فلوى وجهه إلى أعلى، حين امتدت قدمه للأمام، تحركت العين ببطء، نصف مغلقة تقريبًا - لا كلها- كما لو كانت ترغب بذاتها- أن تنغلق؛ هنا قال الصبي الآخر: "لا

تحركه؛ إنه مازال حيًّا". كان الجرار يزمجر ويدمدم في المدى البعيد؛ أصبح كل منهما - عند ذاك - حزينًا. لكنهما تمنيا ألا يراه ذلك الشخص الآخر؛ فوقفا حوله، وكادا أن يتحركا مبتعدين؛ لكنهما عرفا أن ذلك ليس تصرفًا سليمًا. فقال الصبي الأكبر: "أنا سوف أُنهي حياته"، كان ما قاله بسيطًا وجريئًا. عندما لفظ ذلك ؛ صدر عن الأرنب، حركة ضئيلة بقدمه، لكنه لم يستطع النهوض؛ فتكور حول نفسه، في نصف دائرة، وبدأ الأمر؛ كما لو كان الأرنب، يساعد الصبي الأكبر، على تنفيذ ما قاله، وكأنه يحاول إخباره - يائسًا - أن ذلك - أي الموت - هو أفضل شئ يفعله ؛ فعرفا عندئذ، أن عليهما أن يقتلا الأرنب؛ لأنه كان يموت بالفعل، فنظرا حولهما، ووجدوا بعض الأحجار القديمة، بجوار أحد الحوائط، هنا التقط الصبي الأصغر أكبر حجر، يمكن له أن يحمله بكفتي يديه، ونظر إلى الولد الأكبر بشجاعة ؛ لأنه تألم عندما شاهد الأرنب يركل بقدميه، كما اضطرب، وكاد أن يفعلها بنفسه.

كان الولد الصغير، يحب أخاه الكبير، ولربما قام بذلك الفعل نيابة عنه ؛ بسبب الطريقة التي نطق بها الولد الكبير، هذه الألفاظ بصورة هادئة، وواضحة، تبين وجوب إراحة الأرنب من عذابه، وعرف أن أخاه الأكبر، شعر بحزن عميق داخله - ربما أكثر منه ألمًا- فقال الصبي الأكبر: "ربما لم يمت بصورة سليمة.. لسوف أحاول فعل ذلك، دون أن أؤذيهِ، وأُنهي المسألة بسرعة"، وهذا ما جعل الولد الصغير؛ يشعر الغثيان، لما علم أن ليس له أن يقتل الأرنب، إذ أمسك الولد الكبير حجراً أو حجرين، لم يشعر بأن أيًّا منها ملائم، وسرعان ما وجد حجراً مناسباً بين يديه، رأى أنه يوافق الغرض، كان الحجر دافئاً وألمس في يده، دائماً ما كان يطلب من أخيه الأصغر، القيام بالأمور التي لم يرغب هو في تنفيذها؛ لكنه هذه المرة لم يفعل.

لذا أدرك الصغير أنهما بصدد عمل كبير ومهم. تلوى الأرنب، واتخذ أسوأ شكل مذ حاول التحرك؛ فركع الولد بالقرب منه، إذ لم يكن يريد أن يلمس الأرنب بيديه، حيث قال: "لا تلمسه بيديك؛ فلربما يكون قد تسمم، ولا نستطيع أن نغسل أيادينا"، أراد أن يلمس الأرنب بيديه؛ حتى يُهدأه، كي يموت في يسرٍ شديد، لقد سمع عن ذلك المرض، وكيف أن أخواله، عندما كانوا صغارًا، يتجولون حول المزرعة، ويعودون بحقائب، مملوءة بالأرانب، التي قاموا بقتلها، وكان عليهم إحراقها، وعلم أن المرض، مازال متواجدًا، لكن بصورة أقل سوءًا. وضع قدمه على كتف الأرنب؛ ليثبتته إلى الأرض، حيث يرى وجوب ضربه عند رقبته؛ فانفتحت عين الأرنب الحزينة العميقة نحوه، وكانت رائعة وصافية، ولم يُد الصبي أية مشاعر؛ إلا أنه سأل الأرنب -في نفسه - عما إذا كان ما سيفعله هو الصحيح. في حين انغلقت عين الأرنب - نصف إغلاق - ببطء شديد؛ تعبيرًا عن الهزيمة. ضرب الأرنب بحافة الحجر، ضربه بقدر ما يعتقد أنه يمتلك من قوة؛ لكنه لم يستطيع إرغام نفسه، على قبول إيذاء الأرنب - وهو شعور كان ضروريًا لهذه المهمة - حتى إن الأرنب، اهتز تحت قدمه، وتمددت قدماه الخلفيتان، وركلتا الهواء، فضربه ثانية في رقبته. سبق له الضرب فيها، حيث يوجد العديد من العضلات، وأصبح فمه مفتوحًا الآن، وبانت منه أسنانه الرقيقة، وتطلعت إليه العين سوداء تأتلق خوفًا، عند ذاك أدرك أنه لابد آذ الأرنب، واندفع داخله اضطراب مفرع بطيء، وهو يدرك شيئًا مثل ذلك، وغرس حافة الحجر بقوة في العنق، ودفعه للداخل، وأداره محاولاً تحطيم العظام، لقد تمنى كثيرًا أن يموت الأرنب؛ فصدرت عن عظام العنق صوت: تكة، والتمعت العين مرة واحدة؛ فعلم أن الأمر قد انتهى، وأضحى وجه الأرنب الصغير الرقيق، خشنًا مشدودًا، وبدأت أسنانه حادة وببيضاء. كان الولد الصغير، يحمل حجرًا ضخماً

بكلتي يديه، بجوار وجهه؛ وعندما أدرك من ملامح وجه أخيه، أن كل شئ قد انتهى؛ رمى الحجر بعيداً، فسقط على الأرض الجافة، بصوت أجوف عميق.

ولم يشعر بالارتياح لموت الأرنب، لكنه أفضل حالاً، فأخذ بعض حجارة الأسمنت من الحائط المتداعي بجوارهم، وعندما عادا إلى الأرنب، بدا هادئاً راقداً في سلام، وشعر الصغير بالأسف لأخيه؛ فنظر إليه ليجده بخير. وأخبره أخوه الأكبر، عن أمر آخر، سيفنى به جسم الأرنب، ومعه يذهب السم كذلك، لذا غطيا جسمه بقطع الأسمنت، ووضع الصغير حجراً على رأسه، وأراد أن ينصرف بسرعة؛ لأن يده لمست فراءه للحظة قصيرة، ووضع الأكبر الحجارة على باقي جسمه، ولم يجدها متزنة؛ فقلبها كي تتوازن على الجسم الميت، ولما استقرت الحجارة هناك، تحركت القدم الخلفية فجأة عندما ابتعدا؛ لم يخبر الولد الأكبر أخاه الأصغر، بأن قدم الأرنب الخلفية تحركت، وقال في نفسه: إنه كثيراً ما تتحرك الأعضاء، بعد الموت لفترة بسيطة؛ لأن الأعصاب تستجيب للحركة لبرهة، خاصة أنه رأى والده يسلخ ثعبان ماء - وبدون رأسه - وقد تلوى جسد الثعبان وانتفض، وكان يتمنى أن يكون قد سبق له العلم، بأن قدم الأرنب الخلفية قد تحركت؛ لأنه علم أن تلك المسألة -أي موضوع الأرنب الذي لم يمت كلية، وربما يكون في حالة احتضار تحت ثقل الأحجار المتراكمة فوقه- هي معرفة خاصة به وحده، وفكر في نفسه: لو كنت لمستته بيدي؛ لكنت عرفت ذلك بالتأكيد، وأدرك عندئذ؛ أن البشر- يجب أن يكونوا أقوىاء، وهب النسيم قليلاً، وكان الجو جميلاً؛ بينما امتد الجفاف طويلاً طويلاً.. ومازال.

ترك الولدان الممشى، وسارا مسرعين، فوق الحقل الأخضر- المنخفض، هنا قام الصغير بحك يده، حيث لمست فراء الأرنب.

الفصل الخامس

عَجَلَةُ الْجَرَّارِ

لم تكن "كيت" من المنطقة، ولم تكبر لتكون في مزرعة. عقب عدة سنوات؛ وجدوا أن "جاريث" قد أصابه مرض: الشلا ميديا - الذي انتقل إليه من الأغنام- وكان ذلك سبباً في إجهاض "كيت"، وفقدانها لأطفالها - وهذا ما خفف ألمه- فإن المسؤولية تقع عليه، وليس فشلاً عائداً لخصائص جسمها، وقد تمنى ألا تلوم "كيت" نفسها، وكان من المستحيل عندها، أن تقبل فكرة موت أي كائن، وبعد فقدانها أطفالها شعرت بالمولوت بكل أشكاله. كانت تتفقد الأبقار في الحظيرة، وعلمت -حينذاك- أن إحداها قد فقدت عجلها الوليد، وغضبت بشدة من "جاريث"؛ لأنه لم يخبرها، وقد قام بتنظيف القش الدامي، لكنها عرفت بوجود بقرة

عُشراء، فقدت عجلها؛ لأنها أحصت الموجود مرتين، بعدما رأت البقرة خاوية، وسمعت "ديلان" ينطلق بسيارته. يمكنك أن تسمع صوت الأبقار، وهي تهش الذباب بعيداً عنها بذبولها، وكانت العجلة القديمة للجرار، ملقاةً في الجرن، كادت تشعر بالتعرجات الحادة للعجلة، تلامس ظهرها؛ عندما رأتها، كادت الشمس تغرب على سطح الجرن المتكسر، والحر شديدٌ داخله، كما لو كان صوبة زراعية، وخارجة تتصايح العصافير، في تكاسلٍ تلتقط حبات القمح، وتتقاتل حولها في حَمَامٍ من الغبار الكثيف. لكن "كيت" كانت - بمفردها - غاضبة جداً. فكر "جاريث" الآن فيها كثيراً، كان قد أصلح طريقاً احتياطياً جافاً، ووسّعه لدرجة تسمح بمرور جرار داخله، به آثار عميقة، كونه طريقاً، لكن من الصعب السير فيه الآن؛ مع ما يشعر به من ألم في كاحله. كانت الشمس قد أشرقت فعلاً، وفكر بصوت عالٍ: "يجب ألا أنسى أبداً كم كان جسدها متكاملًا... إنها تتغير الآن، لكن هذا الأمر لا يهم كثيراً"، لقد قصد أن يبحث في الحقول البعيدة ببساطة؛ ليتمكن من فحصها جيداً، وقمنى أن يحضر- الطبيب البيطري عندئذ؛ ثم يعود بالدراجة إلى المنزل، وبدا الأمر كما لو أنه في حاجة "شديدة" للسير. شعر بنفسه يفرد كتفيه، ويرفع رأسه عالياً في مواجهة الاضطراب الناشئ عن فقدان البقرة، والعنف الذي شاهده لم رأى الأرنب الميت، وبدأ يشعر بجسده، يتأهب ليتحدى تلك الأمور، وأخذ يفكر: "إن الأمر ليس بهذه الأهمية، وسوف تتغير هي". يعلم أن عليه أن يساعدها؛ لتسترد نفسها من جديد، إذ مازال جسده يحتاج إلى جسدها، وإلى تلمس خريطة تكوينها الأليف، وأجزائه التي تمنحه إحساساً بالنعومة كلما احتضنها، هذا الجسد الذي تغير، وتحول عبر السنين، كما لو كان يجري التغيرات، التي تحدث لجسده هو؛ ليكوناً معاً في تناسق هارموني، وكما لو كان يمثل هو الأرض الجافة، وهي الماء الذي

دائماً ما يتعرف عليه، وعلى كل؛ فقد تغَيَّر جسدها، ولم تزل تفصيلاته تشده وتثيره، رغم الحقيقة التي يعرفها، أن كيميائية رجولته، سوف تشتت - دائماً - الإغراءات المُحكمة، من السيدات الصغيرات، أو الإثارة الناشئة من بشرة مختلفة - غير تلك التي اعتاد عليها - لكنه يعلم أن أولئك الأخريات، لا يملكن أدنى مهارات إشباعه، وسيكُن يقظات أكثر من اللازم كالغرباء، وسيشغلن التفكير الزائد، في التلاعب بجسده ؛ كيما يصل معهن إلى ذروة الأحاسيس، التي وصل إليها مع زوجته من قبل، ومن السهل عليه أن يغرق حاجاته البصرية، لرؤية النساء في مشاهدة: المجلات الخاصة بابنه، أو التليفزيون، أو المجلات التي يخبئها - في خجل- لنفسه، وهو مدرك تماماً أن أيّاً منها، لن يشعره بالمتعة، التي يشعر بها معها، فهو لا يتخيل أن يتماس جسده مع جسد أية فتاة أخرى لـلقد نشأ مُقدرين لبعضهما، وكانت دائماً وأبداً معه حتى اعتقد أنها ظله الداخلي. أخذ يفكر في أقدامها العارية، كاملة التكوين، وكيف أنها -بعدما تلاقيا لسنوات- كانت تلقي حذاءها بعيداً، كلما أتاحت لها الفرصة؛ كي تبقي عارية القدمين، ولما توقفت عن فعل ذلك -فيما يظن- لم يلحظه، لكنه أضفى عليه إحساساً غريباً بالذنب. يفكر الآن في قدمي ابنته العاريتين، وفي حذاءها الملون، الذي رفضت أن تخلعه، ويتساءل كيف ستكون في المستقبل، ابنته بعينها الخضراوين الغريبتين؟ وهل ستقع في الحب مثل أمها؟ وبمثل قرارها الحازم، وأخافه ذلك إلى حد ما، ويعلم أن خوفه سيزداد؛ كلما كبرت، بصورة لم يألفها، مع ابنه، ويتمنى ألا يؤذيها يوماً ؛ بسبب خوفه عليها. لكن الخوف نادراً ما يكون داخل الموضوع. ففي مذكرات والده، تبين كيف فقد أبوه زوجته الأولى، ففقدَها كان له علاقة كبيرة بتركه البنك، إذ أراد أن يعيش في المزرعة؛ ليشاهد الكائنات وهي تحيا وتنمو أمام عينيه، أما زوجته الثانية، فقد كانت أصغر منها بكثير،

وقد أبدى نحوها عناية كبيرة. كان والده يسوق البقر كل يوم - بخلاف الشهور القليلة التي انكسرت فيها رجله- عبر الطريق الصغير، الذي يمر بين مرعين، وذات مرة - وهو شيخ في الثمانين- بينما كان يسوق البقرات؛ وجد إحدى سيارات الشرطة، تعيد له زوجته الثانية، إذ كانت تقود العربة، وسط القرية؛ فاصطدمت بها في جانب عربة نقل، مخصصة لتوزيع المنتجات، كانت واقفة في ركن السيارات، ولم تستطع استخدام المكابح، إلى أن اخترقت مؤخرة عربة النقل، الزجاج الأمامي لسيارتها، وأطاحت بسقفها؛ فأصبحت كعلبة مفتوحة للهواء. وعندما فحصوا عينيها؛ وجدوا أنها فقدت الرؤية السطحية للأشياء، وأضحت كمن يعيش في نفق طويل مظلم. فيما بعد - عدة شهور- اكتشفوا ورمًا فوق غدتها النخامية؛ فنقلوها إلى مستشفى، على بُعد أميال قليلة، لتموت هناك؛ رغم أنهم بذلوا جهودهم، لإجراء عملية جراحية لها. كانت تحيا بصورة لا تصدق، رغم أنها كانت تبدو شديدة الضعف لكل إنسان. بعد أشهر قليلة تالية؛ أصيب والده بسرطان الحوض، ومات في المستشفى بعد ثلاثة أيام فقط، كل ذلك دلّ على أنه عاش في ألم عميق لفترة طويلة، ويعرف "جاريث" أنه مات؛ لأنه لم يتحمل فكرة أن يحيا بعد المرأة الثانية التي أحب.

العَرَبَةُ

العربة تغفو، متاثلة كأنها مبنى قديم، إذ يقودونها يومًا بيوم، ويقومون بركنها، بجوار شجيرات التوت البري العَلِيق والحشائش، وهو مكان يبدو مستحيلًا لركن سيارة، كما لو كانت قد هبطت إليه من السماء. تلك العربة التي ظلت تمثل أشياء كثيرة، من أول سفينة فضاء، إلى خزان للسوائل، وحتى رأس حيوان، مازالت تومض رغم اهتزاز الأضواء، واللمعة البيضاء لمجاريها وحوافها، وحتى بعيدًا عن نوافذها

المتربة، وبسبب الضوء الصادر عنها؛ تبدو وكأنها تتحرك أحيانًا. كانت هناك العديد من القصص التي تروى: كيف وصلت العرببة إلى هذه المنطقة؟ وإلى هذا المدى داخل حقل أجرد كهذا؟ حتى إن كانت ذات إطارات جديدة، ذائعة النوع، ومنفوخة لدرجة الانفجار، كان عبورها للأسوار النباتية، سرًّا غامضًا، وفوق الأراضي التي تملؤها المستنقعات؛ لم يتذكر "ديلان" أبدًا إطاراتها في صورة غير صورتها، وهي جافة ممزقة، إلى قطع من المطاط، عندما كان يلعب داخلها مثل لحاء يتقشر بسهولة، عن شجرة عجوز، حول صرة جنط العجلات، التي كانت صدئة؛ فتراها تتفتت إلى تراب غريب، وسط صحراء من "رمال". تناثرت هناك قصة المهربين، الذين اختطفوا أم "جاريث"، وانطلقوا بالسيارة مسرعين، يتبعهم مطاردهم بجنون، حتى أصابتهم طلقات بندقية والده الهائج: "وهي بندقية جيش قديمة"، وبمناسبة القصة؛ كان والده قنّاصًا سريعًا، لا مجرد طيشة في الحرب. كانت هناك قصة الفيضان، وكيف أن كل الأسرة، اضطرت لدخول العرببة يومًا ما - بينما تسقط السماء أمطارها مدرارًا - للهروب من طوفان مقدس ترك العرببة - بعدما انخفض الماء - وسط الحقل، وهذا هو سر وجود المستنقعات، وسط الأرض ولا تزال. وكذلك تناهت للأسماع قصة البالون، وهي القصة التي فضلوها كثيرًا، بسبب الصورة المصاحبة لها، وتحكي كيف صنع والد "جاريث" - وهو الذي حكاها بنفسه - بالونًا ضخماً، وأحكم وثاقه بالعربة؛ وذلك للسفر به حول مناطق الريف، عاليًا فوق اتساع المدى، وكلما روى أحدهم هذه الحكاية؛ ترى والد "جاريث"، يقوم ببعض الحركات، كمن يبحث عن "الصورة" هنا وهناك في الأدراج؛ حتى يصل لصورة بطاقة بريدية، غير بالية لمنطاد زبلن، مشيرًا للحاملة المربوطة أسفلها، وهي صغيرة - بالطبع - ليقول: "ها هي العرببة هناك... أترى؟". ولم يكن يهم الأولاد

تغير القصص، إذ كانت كلها متساوية في صدقها؛ لأن الأولاد كانت لهم نظرياتهم على أية حال، وكانت العربدة ملعبهم. أما "ديلان"؛ فلم يذهب للعربة فترة طويلة، لكن السنوات القادمة - من الآن فصاعداً- سوف يتذكرها، ماراً بقافلة لشركة موريس للسفر، في طريقها لمسابقة: جمع العنب في مكان ما، ومثل كل الذكريات، التي تكمن داخلنا، بعيداً عن انتقاد وعينا - في الظل - سوف تثور ذكرى العربة بعنف، لـ: فرشها الجلدي الأحمر في الداخل، المبقع في بعض الأماكن، ولأجزائها المتساقطة، ومساحات زجاجها، التي تديرها بيدك، وواقبات الشمس البلاستيكية، وسقفها الملآن بالثقوب، مثل: كيس الشاي، والرائحة الحادة للعربة، ذات الأرضية المكسورة، والشعور بالالتصاق بمقاعدتها تحت الشمس، ونوافذها المفتوحة باستمرار، ولا يهم ما إذا كان يتذكرها بدقة أم لا، فإن هذه هي جل ذكرياته عنها، والكيفية التي بها؛ ستستمر تلك العربة في الوجود. دفع "جاريث" العربة، إلى حيث اعتاد ابنه أن يلعب كثيراً، وكان عليه أن يعود، ويخبر زوجته أنه يحبها، ولبرهة ضئيلة يرى عربته، وكأنها جديدة تماماً، مثلما كانت في الزمن، الذي كانوا يخرجون للنزهة فيه، مندفعة بين شجيرات التوت البري العليق، وفي ثوانٍ معدودة تالية؛ يقع بصره على فضلات زبل الفئران، والعناكب، والتراب السميك، الذي يغطي نوافذها الآن. يريد أن يعود إلى "كيت"؛ ليجدها ويخبرها ببساطة أنه يريدتها، وأنه يرغب في حبها بنفس طهارة الحب الذي كان والده يكتنه لزوجته، ويعلم أنها ستكون غاضبة جداً بشأن موت العجل، الذي ستكون علمت بموضوعه الآن، وأنها تكره جسدها؛ للصورة التي استحال الآن إليها، لكنهما اجتازا مثل تلك التجربة من قبل، فإنه بعد مولد "ديلان"، عندما تغير شكل جسدها، وتلاشى الإحساس بزهو الحمل؛ كرهت عندئذ جسدها، في حين كانت في عينيه قد صارت أجمل من ذي

قبل، وأزعجته قدرتها على الإنجاب؛ رغم أنه قضى- حياته، في الانصياع لمتطلبات التناسل، الأشياء التي كانت تكرهها كان يحبها، بالنسبة إليه؛ كانت ملامح جسدها الممتدة، أشبه بقطعة من المخمل القطيفة، وقد سويت خلاف الاتجاه، أو كريح مرت بالحشائش. إنه يريد لها السعادة، وأن تعلم أنه لا يريد إلا أن تكون كما هي، وأن تعود للسير حافية القدمين ثانية. عليهما أن ينسيا أمر البقرة، وشئون الأولاد لفترة، وأن يخلعا حذاءيهما، وينطلقا نحو العشب الدافئ في الحديقة، ويتمنى - صدقًا - ألا تعود للحالة التي كانت عليها؛ بعد الإجهاض، عندما قامت بقص شعرها؛ ليصبح قصيرًا، وعندما جرحت نفسها، وصومها عن الكلام معه لشهور عدة، لقد كانت فترة عصيبة، والتفكير فيها؛ مازال يخيفه، لدرجة أنه إذا ما تكرر ذلك؛ يخشى- ألا تواتيه القوة، لمواصلة الحياة معها؛ فقد ينتابه القلق، حول قدرته على مواصلة الكفاح، في سبيل ما يتمنى من أشياء، فإنه عندما يكون مجهدًا هكذا - جراء قلة النوم وقلقه الدائم حول أشياء ضئيلة - تكون قدرته على الاستمرار مُحزنة، أو كما لو كان سيغزوه المرض. إن العالم - كما يعتقد- يمتلئ بمثل تلك البطولات الصغيرة، التي يصعب تصديقها، ويراها هو أعظم أثرًا، من البطولات الهائلة في التاريخ، وهو يظن أننا نجد القوة لفعلها، بطريقة أو بأخرى. أخذ ينحى تلك الفكرة بعيدًا عن ذهنه، تلك الرغبة الانقلابية المفاجئة نحو الأمساء، بعودتهما معًا مرة ثانية، وها هو يفكر فيها، وهي تخطو فوق العشب المنتعش، ويعرف أنها سترفض مُبديةً أعدارًا سخيفة. تتعلق بالمسئوليات في مبدأ الأمر مثل: "عليَّ أن أقوم بالغسيل"، أو "ماذا سنفعل في موضوع البقرة؟"، أو "إنك لم تخبرني شيئًا عن أمر العجل"، لكنه سيتمكن من إقناعها، وسط تلك الأشعة الشمسية البديعة، ولسوف

يلتقطها، ويحملها - إذا لزم الأمر - حتى تضحك، وسيضعها فوق العشب الأخضر الدافئ، دون حذائها...

العجل الآخر

يعبر الفناء، وفي جرن القش؛ تقوم العصافير بالتقاط بعض الحبوب، الغبار يغرقها كحمام ماء، مثلما كانوا يفعلون في حظيرة البقر، من هنا؛ كان التراب يتصاعد، ممسكاً بأشعة الشمس، الهابطة من الشقوق الخشبية، وهي تتراقص في حلقات ذهبية، في حين أخذت الذبابات تطن وتأز، ومع اكتمال النهار كانت العصافير في كبد السماء، وبينما هو يأتي عابراً الفناء؛ بدت الحرارة، كما لو كانت غادرت الفناء بالفعل، وانطلقت أسراب الحمامات التائهة، كانفجار في الهواء، واختفت فيما فوق المنزل على المدى. يرى "كيت" في الحقل الأول تخطو مُسرعةً نحو البوابة، رأسها مدلى لأسفل - وهو متأكد أنها تتحدث مع نفسها - شعرها مربوط، بعيداً عن وجهها، كانت تمشي - ببطء شديد، يدرك المشكلة؛ عندما تنظر عالياً، وتلتقي عيناه هو بالدماء، تنساب فوق ذراعها: "أين كنت؟"، "لقد أَلقت البقرة المتوحشة بعجلها للموت"، و"لم أستطع الحصول عليه.. لم أستطع إخراجه حياً منها". استمرت في الحديث، وهي تلعنه، وتلعن البقرة؛ لكنه خرج بحثاً عن تلك البقرة فعلاً. كانت البقرة البنية السمينة، ترقد مجعدة مقابل ضفة النهر؛ فأسرع إلى الحظيرة، ليحضر حبالاً، وتمنى لو كانت الدراجة معه؛ لسارت الأمور أسرع، ولقلل معها ألم كاحله، وعرف أنها ستغضب منه لعدم إحضاره الدراجة.

كانت تقول: "أين كنت بحق الله؟"، و"لقد اعتقدت أنك ستحضر - مباشرة إلى هنا". كانت الحبال معه الآن، وهو يمضي مُسرعةً نحو البقرة، مُكفهرًا من الألم المتزايد بكاحله، كانت قد وقفت عند البوابة، ولم تأت معه لتقديم المساعدة - بلا سبب - لكنه استمر يفكر، في الدماء المنسابة

على ذراعها، وفي الزمن الذي جرحت فيه نفسها، داخل الحمام، وكانت لا تزال تصيح. كانت البقرة متهالكة تمامًا، و نصف جسم العجل المبتل خارجًا منها، مع واحدة من أقدامه الأمامية، الملتوية للداخل، لا تزال مع باقي الجسم، في بطن البقرة، وبدا العجل ميتًا، وغالبًا ما تبدو العجول كذلك؛ لكنها تعود للحياة ما إن تقوم بإخراجها من البقرة الأم، فوضع يده داخل البقرة، وبحث عن القدم المتخلفة، لكنه وجد الوضع خطأ برمته، وعرف أن الحافر قد جرح بطن البقرة من الداخل. أبقى عينيه مفتوحتين؛ لكنه كان يُحدّق في عدم. محاولاً تخيل شكل، ومشاعر العجل داخل أمه البقرة. كانت "كيت" لا تزال تصرخ فيه عند البوابة؛ بينما كان يحاول التفكير فيما هو فيه، وهي تكرر:

"أين كنت.... بحق الله.. لقد قلت إنك ستفحص البقرات منذ ساعة، وهذا ما جعلني أتخلى عن ذلك، كان عليك أن تخبرني، أنك لن تفحصها". واستمرت في السُّباب؛ فنظر إليها باختصار، وأخافه مرآها وهي تكاد تنهار هياجًا، شعر أن صبره يثور داخل جوفه، وأن الأدرينالين يسري في كل أنحاء جسده مهتاجًا؛ فصاح بها: "أذهبى.. أذهبى عني بحق الله". حاولت البقرة النهوض بنفسها؛ حين شعرت بالأشياء حولها، فوضع يده بحنان فوق جسدها، وأخذ يخاطبها مشجعًا: "بهدوء.. بهدوء"، واضعًا يده الأخرى فوق مؤخرتها: "بهدوء.. يا فتاتي". أعاد وضع قدم العجل الأمامية مكانها، فوق جسمه، داخل رحم أمه، لكن ليس بصورة تكفي لسحب العجل الوليد للخارج، نظر إلى أعلى مرة ثانية، وكانت "كيت"، قد خرجت من البوابة، في حين وقفت "إيمي" خائفة؛ لكنها تنظر للمشاهد في شجاعة. تناول الحبل، ووضع أنشوطته حول قدم العجل السليمة، وحاول أن يثبت باقي الحبل، خلف مفصل الكتف الآخر، أصبح العجل أعرج الآن، ولسانه يتدلى من فمه، فأستند إلى الخلف، وثبت

قدميه، وشد الحبل محاولاً توقيت ثقل الشد، مع نوبات الطلق، التي تأتي البقرة. وقد افتقد قوة شد إصبعه الناقص.

أحياناً ما يكون ذلك الشعور في أصغر الأشياء التي تنقصك، وشعر بالأمور تتطور قليلاً؛ يسحب ½ بوصة للخارج؛ سرعان ما يشده جسد البقرة الضخم، ثم انتهى الأمر مرةً واحدة، وظهر العجل الأسود المتمدّد، مصحوباً بصوت وتدفق سوائل الولادة، كان ميئاً. هزه عدة مرات؛ لكنه عرف أنه مات، وانسابت الدماء غزيرة من رحم البقرة المفتوح، وتنهدت بعمق بطئ، متأثرة بصدمة الولادة، ومن علامات وضعها على ظهرها؛ عرف أنها تحمل توأمًا، ولا بد أن يكون ذلك الآخر بداخلها قد مات بالفعل.

أصبحت "إيمي" بجانبه تمامًا، محدقة في العجل الأسود الميت، وبدا لها كبقعة من الإسفلت السائل، فوق طريق جديدة. قالت: "أمي تقول إنها لا تملك القوة الكافية، لجذب العجل من البقرة؛ ذلك هو السبب في موته؛ فنظر إليها قائلاً: "لا يا حبيبتي.. هذا العجل لم ينم جيداً.. انظري هل ترين ذلك...؟ إنه لم ينم بصورة سليمة، لقد كان ميتاً تمامًا يا عزيزتي.. كان يجب أن يخرج من بطن أمه"، شغلته مسألة أن تلك هي الوفاة الثانية، التي تحدث اليوم، ورأى أن إلقاء جثة العجل الآخر في البئر؛ ستكون مشكلة، أي خطأ في المخزون؟ فكر في زوجته، التي مازالت تصيح؛ إذ كان يستطيع سماعها، وتساءل في نفسه، إذا ما كان كل ذلك خطأه هو؟ وإذا ما كان الأمر قد طال عليه كثيراً؟ إن زوجته أنتت من مدينة ريفية حقاً، واعتادت رؤية المزارع، لكنها لم تولد لتعيش في مزرعة مثله، هنا شعر بغضبه يتلاشى هذه المرة؛ لقد تبخر واندرثر. قال لابنته: "أذهبي وأخبري أمك.. أنا أحتاج إلى بعض الصابون والماء، ويمكنها أن تأتي لتساعدني، في إخراج العجل الآخر، فإن الذي أمامك هو الأول من

التوأمين؛" انطلقت "إيمي" عبر الحقل، انطلقت وهي تشعر بأهمية الأمر.

تناول طعامه وحده، ولم تساعد "كيت" في توليد البقرة، كان حزينًا؛ إذ تسبب في ألمها، عندما صرخ في وجهها، ولم يكن حزينًا بسبب أن الأمر كان خطأ، وإنما كان حزنه زائدًا؛ كالحزن الذي يعترينا، عندما نؤدي حيوانًا ضعيفًا، لأننا الأقوى. كان من المفروض أن يأخذ "ديلان" سلال الخبز؛ ليعيدها، لكنه لم يفعل، لذا فقد قام "جاريث"، بإخراج سلال الخبز هذه من العربة الفان، ورشها بالماء، واستمتع خلال ذلك بالماء البارد، ثم تركها بجوار السور؛ لتجف تحت الشمس، دخل المنزل وغسل ذراعه بالصابون، وشعر بالماء الدافئ لطيفًا على جلده، لقد انتوى أن يجلب أنبوبة اسطوانة غاز ذلك الأسبوع؛ إذ كانت هناك إشارة على موقد الطهي البوتاجاز، تدل على أن الغاز قد نفذ، لذا كان عليه أن يأكل خبزًا وجبناً مؤقتًا، وكان قد حاول الاتصال بابنه؛ ليطلب منه إحضار المزيد من الغاز، لكن هاتفه المحمول كان مغلقًا؛ فترك له رسالة، وهو يعلم -تمامًا- أن ابنه لن يفعل شيئًا، ويجب أن يسأل الطبيب البيطري، عن موت العجلين؛ إذ قد تكون هناك مشكلة ما. كانت زوجته بالدور العلوي، مصابة بالصداع، ولا يدري هل يصدق وجود تلك الحالات من الصداع، أم لا !!.

لأن الأمر يبدو أمامه، كما لو كانت هي التي تملك مفاتيح تشغيل أو إيقاف ذلك الصداع؛ فكر في أن نوبات غضبها العنيف - هذه الأيام- قد تؤدي لتلك الحالات من الصداع المؤلم، فهي تغضب أولاً؛ ثم تصاب بها، حيث لا تجد متنفسًا لغضبها، فيحدث ذلك. حاول ارتشاف قهوته، لكنها كانت سيئة، دون غاز ينضجها، فحاول تسخين الوعاء؛ بإضافة ماء ساخن من البراد الغلاية الكهربائية، لكن ذلك جعلها خفيفة، وبلا أثر؛ مما أساء

إلى مذاقها. قذف القهوة في الحوض... إنه ليس ذلك الصداق، الذي يغضبها، إنها هي، إن انفعالاتها كقاذفات الرصاص، تطلق عناصرها الكيماوية فيصيبها المرض، كما ظن أن ذلك، ربما يعود لعينيها؛ إذ يعلم أن العيون المريضة، تؤدي للصداق، لكنها لن تسمح بالكشف عليها، ومن الممكن كذلك - بوصفها فكرة أخيرة - أن يكون السبب؛ تلك الحرارة الدائمة، فإن بشرتها الرقيقة، لا تتحمل تلك الشمس، ويتساءل إذا ما كان يجب عليه، أن يذهب للاطمئنان عليها، لكنه يعرف أن من الأفضل ألا يذهب. فهي تصبح كالقنبلة اليدوية، عندما تكون في وضع كهذا، فإن الذهاب إليها - ببساطة شديدة - سيكون بمثابة نزع الفتيل، الذي يطلق غضبها أو ربما تنفجر، وفي الأوقات القليلة، التي كانت تبدو فيها غاضبة، كانت "إيمي" تغضب كذلك، لكن "إيمي" كانت تبدو مقطبة الجبين، وشديدة الحساسية، ومكتومة لدرجة أنها تبدو كالقنبلة كذلك، وكانوا يتضاحكون حول هذه الصورة، إذ إنها في حال هياجها الشديد؛ كان ذلك دافعاً لأن تقترب من قلوبهم أكثر. تجلس بجوار المنضدة، وهي تخط بعض الرسوم، فوق صفحات كراسات الإسكتش، والحصار الوحشي، يتطلع إليها، وهي تتكلم أثناء الرسم.

عندما ترسم؛ فإنها لا تؤدي ذلك بملامح زائدة لطفل في مثل عمرها، ولكنها ترسم رسوماً صغيرة، كما لو كان كل شيء ترسمه على سطح الورقة، يتمتع بالأهمية والحيوية، فإن الرسوم تتدفق بالتفاصيل؛ لدرجة أنها تُضطر لشرح الأشياء للناس، عندما تريهم ما رسمت، مثل: الأدوات المتنوعة، وسكان العوالم المختلفة، الذين تخلقهم على الورق، والتي دائماً ما تكون عوالم متطورة في مكان ما، ودائماً ما تكون في إطار غير غريب، لقصة: حيوات منعزلة، دائمة التناهي، ولو أنك سألتها عن الصورة التي صنعتها، لكانت إجابتها -دوماً- يغلفها اللون، فإن هذا فطر عش الغراب

الأحمر، وهذا رداء أخضر- ناصع. لكنها لم تقم بتلوين ما ترسم على الإطلاق؛ لأنها ستتولى الرد بقولها: "أنا أعلم ألوان تلك الأشياء"، فهي ترسم من الذاكرة فقط، ولا تنظر إلى الأشياء لترسم، كما لو كانت واقعية. تلك الأشياء، ستقوم بتدمير أماكنها على الصورة. وتبرر ذلك بقولها: إنها لا تملك أقلام الألوان المناسبة، لما تراه من ألوان بنفسها. ذات مرة سألتها "جاريث"، عن تلك السحابة متناهية الصغر، المكونة من نقاط، تكاد لا تُرى؛ فقالت: "إنها سحابة من الشرائط المجنحة، التي نراها هذه الأيام، كل ما في الأمر، أنها شديدة الضالة، بحيث لا يمكنك رؤيتها كأشرطة مجنحة"، وهي كثيرًا ما تضع فارقًا بين الأشرطة المجنحة، وبين ظهور الجنيات، والأمر ليس به خداع منها؛ إذ إنهم حال رأوها- في ذلك اليوم- صاح "جاريث": "انظروا.. ها هي الجنيات"؛ فأجابت: "لا.. إنها مجرد حشرات، وأنا أعرف لماذا يظنها الناس جنيات"؛ فإنها تؤمن أن الأشرطة المجنحة، من عالم السحر، شأنها شأن الجنيات؛ سواء بسواء.

بداية معرفتهم بأمر الغرابة، التي تستحوذ على سلوكها، كانت يوم دخلت غرفتها ذات ليلة، وقالت -دون فزع يحتويها: "ماما.. هناك رجل على السلم"؛ فردا عليها: "إنك تحلمين يا عزيزتي"، وطلبا منها أن تنام في سريرهما معهما. وبعد فترة بسيطة؛ قالت لهما بوعي كامل: "كان هناك رجل؛ لكنه لم يكن مزعجًا، كنت ساعتها ألعب مع دُماي؛ وأخذ يتحدث إلي عبر الباب"، وأظن أنه يعرف الولد الصغير، بين العباي كما فهمت.. منذ ذلك الحين تعلموا أن يتركوها، تتحدث مع أولئك الناس، فهناك هدوء غريب يملكها، وثقة كما لو كانت - دائمًا - تنصت إلى موسيقى غير مرئية، وهي الآن ترسم عالمًا من الضفادع والجنيات، جنيات النهر - تحت الماء - حيث يمكن أن يتواجدوا كما تقول مع الضفادع، واليرقات

الوليدة، وأنصاف الضفادع، تلك الكلمة التي صاغتها - كما يتذكر - خصيصاً لهم.

الضَّفَدَعُ الْأَمِيرُ

أخذوا بويضات الضفدع من البِركة في أبريل؛ قبل أن تصل إليها أسراب البط، وعندما امتلأ المنزل بالحياة، مع عودة الفراشات، وبعد أسبوعين - أكثر أو أقل قليلاً - أخذت البويضات تفقس في خزان المياه الزجاجي القديم، استغرق نمو أرجلها مكتملة، حوالي ثلاثة أشهر، وكانت "إيمي" تلاحظهم، منذ لحظة جمع تلك البويضات في الخزان الزجاجي. لقد شاهدت من الأمور مالا يصدق، حيث تحولت النقاط السوداء، إلى ما يشبه الأسماك، داخل قطع من الجيلي، تثير الضحك، ثم فقس تلك البويضات؛

عندما اكتمل نمو أرجلها، تظاهرت باعتقادها أن تلك الحيوانات الوليدة، إن هي إلا أناس أقزام، أُسروا في جوف هذه الأسماك، ولم يخبرها "جاريث" بحقيقتهم. قامت بعض الضفادع الوليدة... الكبيرة، بالتهام بعض من أخواتها الصغيرات، وقد أفزعها ذلك، وشاهدتهم وهم يتغيرون في زمن، بدا لها طويلاً، قبل أن يتخذوا شكل الضفادع شبه الكاملة، واستطاعت أن تخمن طبيعة هذه الأشياء، رغم أنها لا تزال تسبح بذيولها الصغيرة. قاموا بإطلاق تلك الضفادع في يونيو. كان هناك واحد منها قد تحول بصعوبة؛ من طور السركاريا بالكاد إلى طور الضفدع، وقد أفلت من أن يؤكل لصغره، وظنوا أنه وليد مريض، لكنه في شهر يونيو، أو ربما يوليو؛ بدأ في التغير والتحول كالآخرين، إنما بصورة مختلفة عن بقية الضفادع.

عندما اكتمل نضجه؛ تبدى في شكل سحلية، أصاب "إيمي" مرآها بالذهول، إذ إنها ظنت أنه ضفدع، يحاول أن يصبح أميرًا. يتذكر

"جاريث"؛ وقت أن حاول شرح طبيعة الزهرة الهندية البرية لها، التي كانت تحبها بشدة - ربما بسبب تحولاتها السحرية، حبها لتلك الأشياء، التي لها حقيقة، غير ما تراه الأعين، كانت تحب اللعب بهذه الأزهار البرية؛ لتحديد الوقت، منذ علمتها أمها كيف تتعرف على الوقت، باستخدام تلك الأزهار الجميلة، وكان هذا القرار غير الطبيعي، بالنسبة لتحديد الوقت، يتواءم - تمامًا - مع طريقة "إيمي" في رؤية العالم. ذات يوم استغرقت؛ وقتًا طويلًا في قطف تلك الأزهار، واستقرت هذه النباتات الجميلة، فوق أرضية غرفة نومها في فخر وزهو، وفي الصباح التالي، عندما لم تتحول هذه الأزهار إلى ساعات زمنية؛ ظنت أن ذلك ربما يعود إلى بقائها محدقة فيها طويلًا، وأن السحر يتم؛ عندما تتوقف عن النظر إليها، وحاول "جاريث"، أن يشرح لها ضرورة الإبقاء على الزهورات حية؛ كي تتمكن من التحول إلى ساعات دالة على الوقت، لكنها قالت:

"لقد كانت الزهورات ميتة، عندما كانت تؤدي عمل الساعات" فقال محاولاً الإجابة: "حسنًا، لقد تغيرت الزهورات.. وكان لابد أن تظل حية؛ كيما تتحول.. والزهرة يجب أن تموت لتصبح بذورًا، فهي تموت لتنبث لنا زهورًا أكثر.. فإن زهرة واحدة تموت؛ تمنحنا آلاف الزهور الجديدة.. والناس لا يفعلون هذا.. أليس ذلك حقًا؟". فقالت: "لا..".

ردد "جاريث": "إن الناس لا يفعلون ذلك حقًا".

التَّوَأْمَان

ساعدته "إيمي" في مشكلة البقرة وذلك بالتعاون في جذب جسم العجل الوليد الثاني، وكان عاجلاً صحيح البدن بُني اللون، عادت تتعثر عبر

العشب، حاملة دلو الغسيل، المثلث بمائه الصابوني، ومنشفة فوق كتفها، ظلت تنزلق منها؛ فكان عليها أن تضع الدلو كل فترة على الأرض، لتلتقطها ثم تعود لحمل الدلو من جديد، بيديها الاثنتين، وتبدأ مرة أخرى والدلو يتخبط، وينثر ماءه فوق قدميها ونعليها؛ وهي ماضية في طريقها، لكنها تحب حذاءيها بشدة؛ حتى في ذلك الطقس الحار، وكانت قد أجرت حديثاً طويلاً ومهماً مع حمارها الوحشي، ثم تركته هناك عند البوابة.

قالت: "أمي تشعر بصداق؛ لذا جئت أنا إليك".

سمع نفسه يفكر بصوت مسموع: "لا يجب أن تكوني هنا أبداً". عرف -في أعماقه - أن عليه أن يكون حذراً؛ لأن بقايا غضبه، مازالت كامنة، ولا يريد أن يعود لهذه الحالة، إذ إنه لو انفجر؛ ستكون النتيجة شديدة السوء. حك إصبعه بصوت مسموع، وحاول أن يقرأ الجريدة؛ لكنه كان يفكر، رأى أن التوأمين، كان من المتوقع أن يموتا معاً؛ لكن ذلك لم يحدث، فبينما كان يتحسس داخل رحم البقرة؛ توسل -بصدق- أن يكون المتبقي حياً. وأن يكون هناك خير من وراء هذه المأساة، ولو كانت النهاية سارة، ود لو كانت كيت موجودة معه؛ لتشاهد الفرج بعد تأزم الأمور، كانت "إيمي" تنحني فوق البقرة الأم، وتربت على خصلات الشعر المتكور، فوق عينها، مقلدة والدها، وهي تقول: "مهلاً يا فتاتي"، "يا بقرتي"، "بهدوء.. هذا طيب".

سمعا صوت مزارع آخر؛ منادياً غنمه من بعيد، فلكل مزارع طريقته في النداء. وإذا لم تكن مزارعاً؛ فإنك لن تستطيع مناداة أغنامك، دون أن تبدو - في الظاهر - غبياً ومضحكاً. برز العجل الوليد إلى الوجود، وكان عجلاً قوياً، وضخماً، وصحيح البدن، تمدد العجل، يلتقط أنفاسه بعمق، في حين كان هو يقرب العجل من أنف أمه؛ حتى تتعرف عليه، وتبدأ في

تنظيف وليدها، ولم تزل "إيمي" تربت على رأس البقرة الناعم، وهي تقول: "فتاة لطيفة.. مهذبة"، وتتطلع -في دهشة- إلى العجل الوليد، كان يفكر في كل ما تفعله ابنته، وهو جالس إلى المنضدة، والجريدة بين يديه، وهي تجري لتحضر الماء الدافئ...

الفصل السادس

الأرض التي أعلى الطريق

إنها تهتم بما يحدث، وتقلق بشأنه، وتنزعج من سعيه للحصول على الأرض، بل ويزداد قلقها حول ابنها، وهو يقود سيارته، و"إيمي" وهي تلعب خارج البيت، ويزيد همها جنون "بيل"، ووجود اسطوانة "أنبوبة" الغاز بجوار موقد الطهي، بصورة خطيرة، وتلك العجول الصغيرة، التي سوف تموت - آجلاً أو عاجلاً - والغنم الذي يتساقط؛ فريسة للمرض. و فوق هذه الهموم كلها؛ يأخذها القلق، من أنهما سيصبحان كبيرين جداً ذات يوم، وغير قادرين على الزراعة، ويعلم جيداً أنها تفكر أحياناً، في الحصول على كوخ ريفي، لكن ذلك سيؤدي لإفلاسه - هو زوجها- وتعلم هي ذلك يقيناً.

هو يريد الأرض ؛ لأنه يعرف أهميتها، ويعرف أن أولاده لن يتمسكوا بإدارة المزرعة، في حين لا يحتمل هو أن يهجروها. ولو حصلوا على تلك الأرض، وبنوا عليها منازل ؛ فعندئذ يمكنهم تأجير بعض هذه الحقول، ويمكثون هم في بيت المزرعة، يعتاشون من الدخل الذي يكسبونه، من وراء ذلك. وربما يستطيعون زراعة قليل من النباتات الضرورية، لكن

كيت" تقلق بشأن هذا أيضاً؛ فإنها دائماً القلق، حول كل شئ، ولا ينتهي قلقها أبداً، وهو يدرك أن ذلك أسلوبها، عندما تحاول الشعور بأن الأمر ليس عشوائياً، وإنما هي تملك بعضاً من السيطرة هنا؛ لكنها أشياء لا تملك أنت السيطرة عليها.

البردي

خرجت البقرة تتمشي، حيث استيقظت ليلاً، وبدأت تمشي، وكانت مجهدة، وممرور الوقت بطيئاً؛ أشرقت الشمس عليها، بعد مسافة طويلة في المزرعة، وكان كل ما رغبته؛ فقط ألا تكون داخل الحظيرة. عندما وصلت إلى حائل نباتي ما؛ أسندت جسمها الثقيل الضخم إليه، ثم مالت ميلاً بسيطاً فقط؛ إلا وينكسر الحائل ويتحطم ويفرقع مدوياً، تمت لو كان سوراً من النباتات فقط، فمضت من خلال الثغرة، التي وجدتتها، ثم تركت جسدها يشق طريقه عبر قطع الأخشاب الصغيرة، والأشواك، والأشجار الميتة الجافة، ولو كانت بوابة فما كان عليها سوى أن تميل بجسمها، وتدفعها أمامها، وهكذا استسلم الحائل؛ لأن العديد من البوابات، لم تكن مُقامة بصورة جيدة، وإنما معلقة بأعمدتها المفككة بخيوط وردية اللون، ولم يؤد ذلك إلى تدمير كبير؛ لأنها كانت بلا قرون، حيث يقومون بقص قرون البقرات -عند ميلادها، وعندما تداعت أجزاء الحائل النباتي تحت ثقلها؛ شعرت بغرابة، وكأنها مبرمجة، واضطربت كما تضطرب باقي البقرات تماماً، واستمرت في السير فتزداد تعباً وإجهاداً تحت حرارة الشمس.

كانت ثقيلة بحملها بوليدها الذي لم يكن وُلد بعد، وتلك لم تكن المرة الأولى لحملها، لذا كانت تعرف ما سيحدث لها، وأدركت وجود العجل؛ لكنها بالطبع لم تحب الحرارة المرتفعة، وما إلى ذلك، فاستمرت في سيرها خارج الجرن، وجرحت الأشواك ضرعها الممتلئة حليباً، وتبعتها

أسراب الذباب، تحط على جلدها الدافئ حول عينيها؛ فكان عليها أن تهز رأسها وذيلها لطرد الذباب بعيداً. توقفت برهة لتأكل -كما تفعل كل البقر- تقوم بلف الحشائش الطويلة، النابتة من السور، وتقذفها إلى فمها بواسطة لسانها، الذي كان ضخماً ومتورداً كساق طفل صغير، والعشب كان أكثر طراوة من القش الدريس، ومن الأعشاب القصيرة بالحقل. عند ذاك الوقت ؛ لم تكن البقرة، تعرف أين هي بالضبط؟ واستمرت الشمس في السطوع، وأضحت أكثر سخونة، بل إن السخونة نفسها، انبعثت من جوف الأرض، التي تعرضت لأشعة الشمس لفترة طويلة، هنا هبطت البقرة، نحو ضفة النهر، وحكت جسمها في الرمال، وتمرغت فيها، ورقدت لفترة بسيطة، وكان ما بدا لها أنه على بُعد أميال منها، هو صوت البط الذاهب إلى البركة. في اللحظة التي كان لون البقرة رمادياً بفعل التراب؛ لعبت الطيور حولها الآن، بعدما أدفأتها الشمس وضفة النهر. فيما بعد؛ زادت حرارة البقرة كثيراً، حتى إنها قامت على أقدامها مرة ثانية، وهي تشعر بحركة العجل داخل رحمها، فرفعت ذيلها ومنحت نفسها ربتة رطبة طويلة على جسمها، واستمرت في المسير. وإلى هذه اللحظة؛ كانت ترفع رأسها عالياً، عندما تسير متهادية.

دخلت المستنقع؛ حيث تذهب كل البقرات - فيما يبدو - عندما يخرجن متابعات أنوفهن؛ قدماً وراء قدم، وراء قدم، وبمؤخراتهن العريضة ؛ يمضين في البركة قدماً. وعندما كن يصلن إلى البركة ؛ كنَّ يتوقفن للتفكير حقاً. لم يكن المستنقع سيئاً إلى هذا الحد الآن، بسبب الطقس الجاف غير المريح، والشمس الثابتة، لكن في الغالب؛ كان هناك طينٌ ممزوجٌ ببقع من البوص الأخضر، وآثار أقدام الطيور، ولم يكن يماثل الأرض الجامدة في الحقول. تناثر الصفصاف الرقيق، وشجيرات البندق في

كل مكان؛ لذا سرعان ما بدأت البقرة تدوس فتكسّر، وتشق طريقها فتُحطّم، لكن ذلك زادها اضطراباً واستهلك قواها، وتحت أقدامها - حيث جفت الأرض - كان للمستنقع شكل مثير، من الصعب السير فيه، فإن السير وسطه؛ كان يصدر قعقعة عالية، أشبه شئ بأغصان صغيرة تحترق، وسارت في السبخة لبعض الوقت، وترى هنا وهناك؛ شجرة بلوط ضخمة، شقت طريقها عبر فروع الأشجار الأخرى، وانتصبت كرجل، يقف على أكتاف رجل آخر. وكانت أغلب أجزاء المستنقع قاحلة، وليس سوى الطين الممتد فعلاً للمستنقع، كما كانت هناك مساحات ممتدة من أشجار العُليق التوت البري، وبعض من نباتات البردي الجافة، التي جفت وبهت لونُها، تحت حرارة الشمس، وكانت دافئة، وطويلة الأوراق، فأخذت البقرة تدور بجسمها مرات ومرات وسطها؛ حتى صنعت منها عِشّاً، أوت إليه تلتمس الراحة.

رفع "جاريث" - دون وعي - المفرش من فوق المنضدة القديمة، وأخذ يقوم بتنعيم حبيبات الخشب - الناعمة أصلاً - بيده، فإن بعض الناس، يحبون الأنواع الجديدة من الأشياء، وآخرون يفضلون ما امتلكوه فعلاً لفترات طويلة.

أما الجو، فإنه لطيف البرودة - الآن - داخل المنزل، وكانوا قد جلبوا المنضدة إلى المزرعة من المنزل القديم؛ عندما انتقلوا هنا. فاعتبر وضع المنضدة في هذا المكان، حدثاً جليلاً؛ لذا فقد نظر إلى أطباق كسرات الخبز، وإلى قطع الجبن المكشوفة؛ وقد بدأت تتجلد كقطع من البلاستيك. كانت الأسرة - من قبل - تأكل في المطبخ على المنضدة الأصغر، تاركين المنضدة الكبرى المصنوعة من خشب البلوط لأُمسيات الأحاد، ودعوات العشاء الخاصة، و.... والضيوف. وفي هذه اللحظات؛ كان يسمع صوت خربشات، صادرة عن محاولات "إيمي" في الرسم، وعندما انتقلوا

إلى المزرعة، تناولت العائلة طعامها على تلك المائدة الكبيرة، وشغل تفكيره أن موت عجلين، يعد أمراً سيئاً، مع احتمال انتشار المرض بين الماشية. لأن الأبقار؛ أضحت الآن الشغل الشاغل لهم؛ فإنهم يقومون بتربية الماشية؛ باعتبارها رأسمال مخزون، يربونها لبيعها عقب اكتمالها؛ للحصول على لحمها وغيره. لذا فإنه من المهم أن تكون عجولها سليمة. نظر "جاريث" إلى ابنته وهي ترسم، تلك الناعسة المتوحشة الصغيرة، وكيف تَمْضِي أمورُها مسرعة بهذه الأهمية؟ وابتسم في دعة، فما هي إلا تسعة أيام؛ وتبدأ في الموت..

عَيْشُ الْغُرَابِ

تظل بعض زهرات الجريسات الزرقاء نامية بالخارج. ستذهب "إيمي" إلى الأحراش؛ بصحبة حمارها الوحشي للعب، ولسوف تجد هناك فطراً جميلاً أبيض، يزدهر بعد المطر، فتراه الحمامة، التي تهبط عندها، وتضع الحمار الوحشي على الأرض، والجنيات يدرن حولها، وتتناول غذاءها من فوق مائدة، صنعتها لها شجرة متهالكة، ذلك هو مخبأها السري، وسوف تظن أنها لا يجب أن تتناول الفطر في غذاءها؛ لكنها تحب الفطر جداً، وهو أبيض اللون، مثل ذلك الذي ينمو في مزرعتهم، ورغم أن مذاقه سيختلف؛ إلا أنه حلو كرائحته، ثم أنه سيكون مرّاً - وكل ذلك يحدث فجأة؛ لذا ستتوقف عن أكله، وتشعر بالأسف؛ لأنها قامت بجمعه، ولسوف تخفيه؛ لأنه كان شيئاً جميلاً، قبل أن تقطفه، وكأنها تفسد زهرة.

سيكون الفطر كبيراً، بما يزيد عن ملء يدها، ويشبه قبعة مائلة، كالتي ترتديها إحدى دماها، ولكنه يبرق كورق مصقول، أما جذعه؛ فسيكون ممتلئاً بالشعيرات المتداخلة - هنا سوف تتذكر شكل أظافر والدها، وهي تتقصف وتتقشر - كما سيكون له كرة ضخمة عند قاعدته،

وكأنه موضوع داخل كيس، وسوف ترى أوراقه البيضاء، وثمرته الناصعة البياض، كأنها ملاك حقيقي. سترى بنفسها نباتات الفطر، طوال تسعة أيام من الآن؛ بينما تستيقظ في الليل لتفرغ ما في جوفها بقسوة، عندها ستصبح شديدة الظمأ، كأنها تحترق عطشاً، ولسوف تنادي أمها وأباها؛ فيهرعان إلى جوارها على السرير، ويحكمان وضع الأغذية حولها، وهما يعيدان ترتيب لُعبها، مخاطبتين حمارها الوحشي؛ بينما تلمس أصابعهما رأسها الدقيق. ورغم ذلك؛ لا تتوقف عن القيء.

ثم يبدأ دور الإسهال؛ فتلطح سريها. وهذا الإسهال يصاحبه ألم مفرع؛ فتشعر كما لو أن شخصاً ما، ينتزع منها معدتها بيد ضخمة عاتية هنا؛ سوف ينقلانها إلى سرير والديها، سيغرقها العرق بغزارة، وتشحب، وتهزل في لحظات، وتكسوها ملامح المرض الخطير، ويحدث كل هذا في سرعة مذهلة. سيقوم والدها باستدعاء الطبيب، الذي سيأتي؛ فيدرك أنها حالة تسمم من نوع ما، لكنه سيخبرهم أنها قد عبرت مرحلة الخطر، وأن أجسام الأطفال، تتفاعل بعنف مع أصغر الأشياء خطراً، وذلك حفاظاً على حياتهم، رغم أن ما يبدو لهم شديد الإزعاج، إلا إن كل شئ سيكون على ما يرام.

سيطلب منهم أن يتركوها لتنام، ولأجل أن القيء لا يتوقف؛ سيجدان يديها وقدميها عند الصباح باردتين، كما لو أنها باتت في الثلج، وهنا سوف تفرع وتقلق، مثلما تكون أنت في حالة من الحمى، لكنها لن تخبر أحداً بخبر فطر عيش الغراب؛ لأنه كان موضوعاً قديماً. في المستشفى حيث أخذها؛ لأن صحتها لن تتقدم، ولأن بشرتها أصبحت شديدة الشفافية، بصورة غير طبيعية؛ سيجرون لها بعض الاختبارات العجلى، وسيقومون بتركيب أنبوب يصل إلى معدتها عبر فمها، ويشفطون محتوياتها، ولكن عند هذه اللحظة، سيكون السم في أماكن أخرى من

جسمها الرقيق، أما جارث، فإنه سيصيبه القلق عليها بالمرض؛ لذا لن يتمكن من الذهاب للمزاد، ثم بعد يومين ستصبح بخير. سيعيدانها إلى البيت، ويبدو عليها الشفاء، وسيقول الطبيب لهم إنه كان على حق، عندما أخبرهم أنها كانت تتفاعل بشدة مع بعض الأشياء؛ لأنها كانت صغيرة، ففي المزارع توجد كل الأخطار والهموم - ولسوف يقول ذلك- كما أن الأمر، سوف يبدو غريبًا وشاذًا بنظرهم، أن تصبح مريضة إلى هذه الدرجة، ثم فجأة وبقسوة صاخبة، سوف تموت^١. ويدخل الطفل الصغير، الذي تراه - بنفسها- ليتحدث معها؛ بينما تحتضر، لكن الأمر مازال سيئًا.

^١ يُعد التسمم بعيش الغراب المنقط إصابة مميتة. إذ إنه قد يقتلك منها نوع من السموم، يسمى: الأمانتوكسينز، وتدعى أيضًا فلنيسوة الموت، في حين لا تؤثر سموم الفالوتوكسينز، تأثيرًا خطيرًا على الإنسان. وتسمى الإصابة بتسمم عيش الغراب: الملوك المُدمر، حيث يؤدي جزئ بروتيني سام منها، إلى عطب نواة خلايا الكبد؛ متسببًا في إيقاف عملية تكوين البروتينات؛ فتبدأ الخلايا في الموت. حين يأخذ السم في الانتقال عبر الكلى؛ تحاول تلك تنقية الدم منه، لكنه يهاجم القنوات الكلوية الدقيقة، وبدلاً من أن يجد طريقه إلى البول؛ يعود مرة أخرى إلى الدم، فيهاجم كل شئ يقابله؛ مرات ومرات، مفتتًا إياه إلى جزيئات معطلة بصورة متكررة، وهنا يكون من الأفضل للمصاب أن يموت

الفصل السابع

هناك صوتٌ كَهْرَبِيٍّ لِلطُّيُورِ

نامت البقرة للحظات، أو نعست؛ وهي تمضغ ما تجتره من جوفها، من الحشائش التي التهمتتها عند السور النباتي، على حافة الحقل، وعندما استيقظت، ارتعبت إذ وجدت الطيور تتقافز، وتتخاطف ما حولها، وشعرت أنها مراقبة، كانت دافئة جدًا بسبب الشمس، وقد غفت قليلاً، ثم نهضت... وواصلت المسير، كانت تصطك بما حولها، وهي تشق طريقها، عائدة عبر النباتات الكثيفة الجافة. برز وسط الطين؛ قفص صدريّ من العظام البيضاء، كأنه آلة محطمة، فإن العديد من البقر، مات في هذا المستنقع، إذ تغوص قوائمه فيه؛ فتلصق، ولا يجد المرء، مفراً من قتلها بالرصاص في مكانها؛ رغم أنها تجاهد للخروج من مأزقها، ولا تدري أنت إذا ما كانت البقرة، قد أمعنت الفكر في موتها، عندما شاهدت تلك العظام أم لا، كانت قد غادرت قطعة أخرى من الأرض الخضراء، وهي ماضية قدماً؛ دون سبب، وبلا هدف، اتجهت عبر الحقول.

مشى "جاريث" نحو المستنقع، والحرارة تلتهب، وبدأ كل شيء هادئاً مستسلماً، وكان الخروج في هذا الجو - بعد الغداء - أشبه بالاصطدام

بحائط من النيران، ولم يتمكن من رؤية شئ لبضع لحظات ؛ حتى اعتادت عيناه الضوء المبهر، وقال لنفسه:

"إذا جاء الطبيب البيطري فمن الضروري أن أحضر البقرة الأم".

ومضى في الطريق، الذي ظن أن البقرة مشت فيه، عابراً الحقول، ولم يدرك إذا ما كانت البقرة في المستنقع الآن أم لا، فهي سوف تصنع عشا، وترقد عليه؛ لتلد عجلها بهدوء. عبر الطريق، فيما وراء الأرض، يسمع نباح كلب، وصيحات جاره الغاضبة؛ فتحول غضبه، الذي يُمور بأحشائه لهم، ذلك الغضب الذي ثار حقاً بسبب البقرة، وبسبب الأرنب، وبسبب كاحله الذي يؤلمه، وحاول توجيه كل هذا الغضب؛ ليصبه على جيرانه، إنهم قوم سمان أشرار، لا يعرفون شيئاً، ولا يحبون شيئاً، ويتبدى ذلك في سلوك كلابهم، وكانوا قد جاءوا هنا منذ زمن مضى؛ ليسكنوا مزرعة "بيل"، وفي نيتهم الاستفادة من أرض المزرعة، لكنهم تركوها للخراب، وحاول أن يحب جيرانه الجدد، لكنهم ليسوا ممن يمكنك أن تحبهم في نهاية الأمر.

كان متأكداً أن واحداً من كلابهم، هو الذي قتل قطته، لقد فقدوا القطة الصيف الماضي، وظنوا أن بعض السائحين، قد أخذوها، أملين أن تكون الأسرة التي أخذتها، أسرة طيبة؛ فإن كثيراً من السائحين، يأتون كل عام، ومعظمهم من المدن، ولا يعرفون كثيراً عن الريف، الذي يُعد متنزهاً لهم فقط، وعندما يرون قطة، يظنون أنها ضالة؛ لعدم وجود منازل قريبة منها. يلاطفونها ليأخذوها معهم؛ شاعرين بالأسف لأجلها، والأسوأ من هذا، ولأنهم لا يفهمون طبائع الأشياء، تدخل القطة العربية، وتبدو المسألة أشبه بعملية اختطاف، وهنا يتخيل القطة - فجأة - وسط المدينة، يملؤها الخوف، لكنه يعلم - تماماً - أن كلاب الجيران، هي التي أخذتها. ذات مرة؛ جاء أحد كلابهم - وهو من النوع الألزاسي القذر غير

المدرّب- إلى ممشى المزرعة، ودخل الفناء، حيث كانت "إيمي" تلعب؛ فهجم عليها، وهو ينبج بشدة في وجهها، لكنها لم تصرخ، ولم تتحرك، وجاء الكلب كيرلي - رغم هرمه- وأخذ ينبج هو الآخر في مواجهته رغم أنه يعلم أن ذلك الكلب قد يقتله في اللحظة التي ظهر فيها ابنه، الكلب جولشي؛ فهجم بشجاعة على الكلب الغريب، الذي هرب مسرعًا خارج الممشى، رغم أنه تردد مرعوبًا للحظة في مبدأ الأمر.

سيكونون في الحقول مع الحملان ذات يوم، ولسوف يأخذ "جاريث" بندقيته معه، ولسوف يقتلهم، ومن ثم يعيد جثث الكلاب المقتولة لجيرانه، وإذا ما تفوهوا بكلمة؛ سيفجر غضبه فيهم، لأن غضبه سيمنحه قوة هائلة. عندما حصل جيرانه على كلابهم؛ تناقشوا معًا حول تسمية هذه الكلاب، وكانت أول فكرة سخيفة طرأت لهم، هي أن يعطوها أسماء ويلزية، وهم لا ينطقون اللهجة الويلزية بدقة، ولم يتفقوا على أسماء بعينها، أخيرًا -في تحد واضح- أعطوا اسمًا لكل واحد منهم، وأصبحت الكلاب أدوات يستخدمونها ضد بعضهم البعض، مثل كل شيء آخر حولهم، قامت المرأة بتسمية الكلبة، التي تشاركها بعضًا من سماتها: تشر، اقتداءً باسم إحدى نجومات موسيقى البوب، وقام هو بتسمية كلبه باسم أحد العظماء، وكان يناديه بصوته، الذي يشبه صوت الدجاجة - صائحًا عبر الحقول - لأن هذا الكلب كان دائمًا في حالة هرب، والكلاب تتقاتل أيضًا باستمرار، حيث إن الكلاب صورة مكثفة لسادتهم، يتعلمون بالملاحظة لا بالتأديب. عندما كان "جاريث" يتفقد مخزنه ليلاً - وهو يشتهي فضاء الليل الطويل - يسمعهم وهم يتعاركون، وتمزق أصواتهم الغاضبة صمت الحقول، وكلابهم تنبح معهم - مثل ما يحدث الآن- فيثير ذلك غضبه؛ لأن هذا انتهاك فاضح، لهدوء هذا المكان البسيط.

الوَخْش

اعتادوا أن يشيعوا القول، بأن المستنقع مسكون بالأشباح؛ كي يخشاه الأطفال، فلا يقتربون منه، وكان من السهل أن يؤمن المرء - أحياناً خاصة الآن في ذلك العالم شديد الجفاف- أن هناك وجوداً لهذه الكائنات، مع شعور بأن المرء مراقب، وأن الأشباح تنتظر.

وجد "جاريث" روث البقرة - الذي أخذ يجف- حيث استراحت بجوار الضفة، وقد تكاثرت عليه ذبابات برتقالية لامعة، تفترس الحشرات الأخرى، المتجمعة حول الروث، وتضع فيه يرقاتها؛ فعرف عندئذ أنها توجهت نحو المستنقع. وجد آثار حوافرها في الطين الطري، الذي يعلو - عادة - حتى يصل خصره، وهذا مستحيل الآن، كانت البقرة قد شقت طريقها، وكان من السهل تتبع الآثار الغائرة، لمسيرة جسمها الثقيل، وبدت الأرض، كما لو كانت تتضور جوعاً، وتذكر "جاريث" موضوعاً قرأه في جريدة، منذ فترة طويلة، عن فتى عمره ثلاث سنوات، ظل يتتبع الأشجار المتساقطة ؛ حتى تاه في الطريق.

وكان قد تتبع هذه الأشجار؛ لاعتقاده أن ديناصورا ضخماً، هو الذي أسقطها، وأراد أن يتحدث مع الديناصور. ويتخيل "جاريث" ذلك الفتى، وهو يتتبع الأشجار المتساقطة، الممزقة أشلاءً في الأرض. وكان الفتى اسكتلندياً، ويتذكر ذلك بوضوح؛ إذ إنه بعد ست عشرة ساعة؛ سيجدونه سالمًا. كان غريباً أن يفكر في والده، حتى ذلك التاريخ البعيد في اسكتلندا، خلال الحرب، رغم أنه لم يتكلم أبداً، عن الحرب حقيقة، وبقراءة المذكرات؛ كان مثيراً أن يعرف أن والده قد أرسل إلى: "ديك"، و"دوندي"، و"اوركني"، و"برايتون"، و"إسكس" في أحراشها، و"كارليسلي"، بيتسم؛ إذ يتخيل أبيه، وهو يكتب: [عندما كان "هتلر" يمارس كل أدوار الشر، وكل الموبقات التي يمكن لشيطان من نوعه أن يقوم بها...]

وتخيل والده؛ وهو يرطن بكلمات ألمانية، وتعمعن فيما مثَّله السفر إلى مدينة ديك لأبيه، التي هي أبعد مما ظن أن يرى من أماكن، حيث عمل هناك سائقًا، وتابعًا لواعظ السَّرية، وعندئذ في أقصى- اسكتلندا ؛ مرت ثلاثة شهور، هي الأسعد في معترك الحرب المغبر، وهو يقود السيارة مرتادًا المنطقة مع الواعظ، وكان يذكر الوقت، الذي فيه أخذوه لرؤية عمّة الواعظ، ذات التسعين عامًا، والتي لم تكن تتكلم سوى اللهجة الغالية، التي قام الواعظ بترجمتها أمامه. طلبت منه أن يغني لها باللهجة الويلزية، وكان "جاريث" قد سمع والده يغني، مرة أو مرتين، وتخيل أن غناء أبيه، لابد أنه قد أثر كثيرًا فيها. توقف لوهلة يريح فيها كاحله، ويستخدمه في ركل بعض من تلك العظام القديمة، التي تشبه القفص الصدري، وهي نصف مدفونة في الطين اللازب، يشتاق الآن بشدة لفنجان من القهوة؛ فقال لنفسه: "اللعنة على تلك البقرة"، هنا يميل نحو الأرض؛ ليقطف أحد جذور الزهرة الهندية البرية، ثم يمد يده في جيبه يلمس مديته؛ ليقوم بتقشير الجذر، ويعتصره في فمه؛ أملًا أن تطغى مرارة العصير على رغبته الشديدة في القهوة، يفعل ذلك بصورة آلية؛ يتحسس جيبه، ويدرك أن إصبعه الصناعي غير موجود مرة أخرى، يقوم بإخراج الجذر من القشر، ويستخدم ظفره في إزالة الأوساخ من عليه. يتذكر؛ وهو يمضغ الجذر المر مذاقه منذ طفولته، وحصته من الطعام وأخوته، حين لعبوا معًا في مصارف الحقول بجوار المستنقع، وكان يعبر تلك المصارف "الخنادق" في الزمن القديم، لكنها الآن جافة، وخاوية، ومحتقة..... وقد انتابته هذي الذكريات بقوة ؛ مصحوبة بذلك المذاق النفاذ، قادمة بوضوح شديد من أعماقه، فإن هذه الذكريات كالمشاعر تمامًا، تكمن تحت ظاهر الإنسان بدقة حقيقية، بوصفها المخزون الاحتياطي، الذي يرشف منه المرء، وقت الحاجة.

من السهل -كما يعرف- أن يأخذ الإنسان بظواهر الأشياء، مثلما يقوم المرء بغمر دلو في الماء، وهو المسيطر على نفسه، أو كما أنك تستطيع استدعاء تلك المشاهد بكامل وعيك، ولكن عندما تطفو هذه الأشياء إلى السطح، دون استدعاء، ودون سيطرة من ذاتك، وقد أطلَقَتْهَا من غياباتِها؛ رائحة مميزة ما، أو خوف ما يملكك؛ فلسوف يذهلك مدى عمقها، الذي كنت تخفيه طوال حياتك. يعلم أن ذلك قد وقع، حيث امتلك أبوه كرامته، وقدرته على أن يحب ببساطة وبعمق، من خلال مواجهته لكل هذا الهم العام داخله.

فإنه يعتقد أننا إذا ما امتلكن الإحساس بالمأساة؛ لكان علينا أن نواجه الشعور بالهم العام. تمامًا مثل ذلك الطعم الذي يذكرني بلعبة الجنود، وليس بيدي إلا أن أعترف بحبنا الكلي للبشر- وللآخرين، وإذا لم نكن بحاجة لمعرفة مدى عمق هذا الحب، إلا إننا نشعر بضوئه على السطح. وعندما كان والده شابًا؛ تزوج من فتاة كان قد قابلها، وعاشا في سعادة مُقيمة، ووُلد لهما ولدان، وقد أدت واقعة البنك؛ إلى انتقاله مرة أخرى، وكان عليهم أن يغادروا ذلك البيت البديع، الذي كان جوار البحر -لكنهم مازالوا سعداء- وبعد شهور قلائل؛ وُلد لهما ابن ثالث، وكان طفلًا سليمًا، وذات يوم، قبل أن تعود للمنزل؛ أصيبت "ثيلما" -زوجته- بجلطة، وحاولوا إنقاذها لكنها ماتت، فتمزق عالمه بددًا؛ ولم يكن لدى "جاريث" أدنى شك، في أن هذه الحادثة هي مصدر قوة أبيه، في الشعور بالاهتمام للآخرين، وقدرته على أن يكون سعيدًا لأبسط الأشياء في أسرته.

حاول ألا يغرق في نفق الأفكار، الذي انفتح أمامه، كفم هائل يهدد بابتلاعه، وأن المأساة قد تشفيهم -أيضًا- مما هم فيه، وقد تزيح تلك المشكلات الدقيقة بعيدًا؛ إذا كانت ستحطمهم كالشظايا، فلا موضوع البقرة، ولا العجول الميتة، ولا سَفَر الابن؛ للالتحاق بكليته، ولا الأرض

التي تمنّاها، ولا حتى جسدها، غير المرغوب فيه، إنها الكارثة تلك التي يمكنها أن تجدد حياتهم، وتجعلهم يحصدون السعادة بقدر ما يستطيعون، وبيعض الامتعاض؛ رأى أن والده كان محظوظاً بامتلاك هذه السعادة. انهالت عليه سيناريوهات الكوارث؛ فأغرقته، ولم يستطع صدها، كانت كأمواج العواصف، وسطها رجل في سفينته ببحر خضم، عليه أن يحاول قيادتها بأمان، ويؤكد لنفسه ضرورة ألا يؤمن بالقدر، أو أن يكون حذرًا فيما يأمله، فإن كلمات مثل: "أنا لا أقصد ذلك"، أو "هذه الأفكار ليست حقيقية"، كلها قبض هواء، لكنه الآن لا يستطيع إيقاف سيل الأفكار عن مهاجمته، ربما إذ ما كان وباء البروسيلة، يتفشى في قطيع الغنم؛ لكان عليهم أن يعدموا هذه الحيوانات، وتلك ستكون نهاية الأمر، وبعدها يمكنهم أن يبدءوا من جديد، والإرهاق الناجم عن تكرار فعل نفس الشيء كل يوم، سيتغير كذلك، أو لو أن شيئًا ما حدث لواحد منهم؛ يُعيد علاقات التواصل بينهم قوية معًا، يمكن لشيء ما أن يعود للحياة بينهم، أو حادثة اصطدام سيارة ينجون منها؛ تعيد إليهم الوعي بقيمة الحياة.. أو ألم سريع، ألم جاهز، يُعيد تأكيد توازنات الرغبة، تأتيه الأفكار بعنف: إن ما يجب أن يحدث، يجب أن يكون لها هي؛ لأن الآخرين يملكون القوة، والقوة مازالت مطلوبة لأولئك المستعدين دومًا، أو يتساءل لو أن هجومًا وقع عليه شخصيًا؛ هل يُعيد ذلك التوافق بينهما؟! ويجعلهم يدركون مدى ما يمكن أن يخسروه... ربما سرطانٌ يعيش به !.

لكنه -في نفسه- يدرك أنه لو فكر في هذه الأمور، فذلك يعني أنه لا يملك القوة لهذا، ولو وقعت مأساة ما - فقط- هل يمكنه أن يعرف، إذا ما كان سيبقى شئ على الإطلاق؟ وكيف يمكن لإنسان أن يتمنى الإصابة بالسرطان؟ وفي الأسابيع التالية؛ سوف يشغله ذلك الأمر تمامًا، ويقول صوت داخله، ذلك هو الجنب البسيط، الذي يمزقنا جميعًا بالتدريج،

انهيار في قوة السطح الخارجي، عندما تنفذ منك الأشياء، التي تخلق الرغبة داخلك، وعندما تفكر في كل شئ، وفي كل وسيلة لتغيير الأمور بدلاً من قبولها على علاقاتها. إنه يتمنى لو كانت كيت بحالة أفضل مما هي عليه، وأن تضحك، وأن تمشي - دوغما ضرورة - تحت الشمس، أو أن تحبه - ببساطة شديدة- من جديد. وهذا في نهاية الأمر يتساوى مع غفرانها؛ لشعوره نحوها، ويظن أنه لا يجب أن يكون بهذا الشكل، وألاً يترك هذه الأفكار السوداء تستغرقه، هذه السحابة الضخمة الدانية، الممتلئة باللامبالاة، وعدم الرغبة، فإنها هي العدو، الذي تجب ملاقاته؛ حتى النهاية.

الطبيب البيطري

انحدر الطبيب قاطعاً الممشى- في عربته الفان القديمة. وما كان يدهش جاريث -دائماً- هو قدرة هذا الرجل الهادئ، على تحمل صخب قرقرات تلك العربة، ثم أدرك أن ذلك الطبيب البيطري الهرم يحمل تقديرًا عظيمًا للزمن، وكأن أمر استخدامه للسيارة، واستمرار قيادته لها؛ يُبقى هذه الفان على قيد الحياة، وما كان له أن يقايض عليها، بل أنه يقوم بإصلاحها كلما تمكن من ذلك، وعندما يحدث أمر جلل - بصورة خاطئة- فقد يتركها كلية، وذلك ما منح "جاريث" إيمانًا عميقًا بتلك العربة الفان القديمة. كان الطبيب البيطري يعرف مقداره، ووضعه، وتقبل ذلك راضيًا، كان من الممكن أن يصبح طبيبًا؛ لكنه عرف - فيما بعد- تلك الأسئلة الدائمة للناس، وحاجتهم الملحة لمعرفة الأسباب، مما يؤدي لإرهاقه بشدة، وكان عليه أن يبتكر الأشياء، ويشرح كل ما يفعله، في حين أن كل ما يفعله -حقيقة- كان صادرًا عن غريزته، والحيوانات تقبلت ذلك ببساطة، هنا أطلق نفير سيارته مرتين. قفز جولشي- الكلب الصغير نحو العربة، وهو ينبح في اللحظة، التي خرج فيها هو من عربته،

بينما وقف كيرلي، على أقدامه بصعوبة، هازأً ذيله في بلادة، وأخذت نحلة ضخمة صاخبة، تدور حولهما. ووقعت عينا الطبيب على الكلب الهرم، وابتسم له بحزن ومودة، قائلاً: "أهلاً يا فتى" بهدوء شديد. دارت النحلة عدة مرات، وعندما اقتربت من الأرض؛ سحبت كوراً ضئيلة من التراب، وكانت تطن حولهم بلطف، هنا فكر الطبيب في نفسه: "إنهم يعتقدون - الآن - أن النحل يطأ الهواء، مثلما نطأ نحن الماء"، كانت النحلة تدور وتدور، حول المكان الصغير، بجوار الباب، وإذا استطعت أن ترسم خطأ خلفها، فلسوف يبدو ذلك الخط كالأفعى الملتوية، بنفس نمط الحركة الهادفة للحيوان، وواصل تفكيره: "إنها تبدو فضولية، لكنها حشرات دقيقة في بحثها عن الأشياء". شعر بلمسة خفيفة من شئ ما على بشرته، داخلته رائحة متتالية من أريج الصابون، كانت "إيمي" تنفخ دائرة جديدة من فقاعات سائل الصابون، الصاعدة من لُعبتها، نحو الطبيب الهرم. هزَّ كيرلي ذيله أكثر؛ عندما رأى "إيمي"، وبدأ السير نحو الطبيب. عندما سمعت "إيمي" صوت العربة، منحدره نحو ممشى المزرعة، عرفت أنه هو، وبمجرد أن أطلت برأسها عبر الباب؛ أدركت أن والدتها نائمة، فانسحبت عائدة خارج المنزل وقالت للطبيب: "أمي راقدة في السرير بسبب صداعها، وأبي فقد بقرة".

أجابها الطبيب: "إذن أنت المسئولة هنا؟". فردت عليه بانحناء سارة، وهي تعتقد أن النحلة تشبه الحوامة الهليوكوبتر.

كان هناك الكثير الذي يضاف لما قالت له عن مادة النحو السيئة جداً، لقد أفصح قولها عن منطقها، لكون صحتها رقيقة؛ تعتقد أن أفضل ما يقوم به المرء، أمام أي ألم أو قلق - يشتد به - أن يذهب للنوم، لأن ما

يؤلمك سيذهب للنوم معك أيضًا وكل ما عليك فعله عندئذ، أن تنهض من النوم بهدوء شديد؛ كيلا توقظ معك هذا الشيء السيئ الذي آلمك، وتخرج من سريرك، وتتركه نائمًا، فلا يزعجك بعد ذلك أبدًا. ولم يكن أمام والديها خيار آخر أمام منطقتها إلا قبوله، وغالبًا ما كان يفيدها ذلك، لذا لم يدققا في الأمر كثيرًا؛ بل تمنوا أن يصدقوه كذلك. كان هناك أمر؛ آثار انتباه "جاريث" دائمًا، ذلك هو الأسلوب الذي يكبر به أبنائوه؛ مصطحبين أمورًا خاصة بهم كلية.

سألته: "هل أتيت لمعالجة كيرلي؟".

آلم الطبيب؛ ذلك السؤال فعلًا، فتردد للحظة بشأن الكلمات التي سيرد بها، وعندما نظر إليها عرف أنه يجب أن يكون شجاعًا في إخبارها بالأمر. فقال:

"لا أظن أن بإمكانني شفاؤه الآن، لقد أصبح هرمًا جدًّا".

فقالت: "يجب أن نعطيه حمامًا جيدًا".

أصبح الكلب قريبًا جدًّا من الطبيب، تفوح منه رائحة عفنة، واستطاع الطبيب أن يرى آثار البلل، وآثار عضة فأر سطحية على قدمه، تنز صديدًا وشحومًا، ما ذكره بقطعة اللحم الحمراء أسفل اللسان، في حين كانت رائحة الكلب منفرة، إذ كان ضعيفًا جدًّا، لدرجة أنه لا يستطيع الإبقاء على نظافته، بل يتغوط على نفسه، ويتعلق الغائط في خيوط سميكة مدلاة بفروته. هنا شرحت إيمي الأمر للطبيب، قائلة:

"نحن نعطيه حمامًا بالخرطوم باستمرار؛ لكنه يعود قذرًا كل مرة، وأظن أنه يحتاج لقص شعره"، نظر الكلب بامتنان للطبيب، ملوحًا بذيله، إن مسألة قتل الكلب؛ ستكون صعبة بالنسبة إليه، لأن الكلب لم يبد عليه أنه قد قبل أن يكون موعد موته قد حان، وتمنى أن لو كان "جاريث" موجودًا، فهو يحترم أولئك الناس، ويحترم فيهم أنهم لم يطلبوا

منه أن يأتي لقتل الكلب، وقت فاحت رائحته العفنة، أو وقت ما بدا من مرأى هذا الورم الغريب فيه، يثر غثيانهم كلما رأوه. نظر الطبيب إلى النحلة، التي استقرت هذه اللحظة فوق زهرة الهندباء البرية، بياقتها الذهبية اللامعة، والبقع الصفراء، والبيضاء عند أطراف جسمها، وبدت كما لو كانت تزهو بنفسها فوق الزهرة البرية. لو أن الطبيب قد أمعن نظره عن قرب؛ لرأى أن جسمها أكبر من اللازم، وأنه أكثر دروعًا، ولها فراء ناعم قليل، ويعرف أنها تعيش في مستعمرات جماعية أقل عددًا من مستعمرات نحل العسل، التي تتكون من حوالي مائة وخمسين عضوًا، حيث تعتني الذكور والنحلات الشغالة بالملكة الوحيدة في الخلية، المقامة تحت الأرض، في حفرة فار قديمة أو شيء من هذا القبيل، حيث يأخذون الطحالب والأعشاب إلى داخلها، ويقومون ببناء خلايا من الشمع؛ لتحتوي العسل والبيض. لو دقق الطبيب بصره أكثر؛ للاحظ أن هذه النحلة غير المنشغلة بأعمال النحل، لا تجمع بذور اللقاح من الأزهار في أكياس معلقة بأقدامها، إنما كانت من نوع نحل الزنبار، الذي يبدو مثل باقي أنواع النحل؛ لكنه ليس كذلك حقيقة، فإن هذا النوع يدخل خلايا النحل، الذي يشبهه فيقتل ملكتهم، وقد راقبت "إيمي" النحلة للحظات، إن هذه النحلات تضع بيضها في الخلايا، وتقوم النحلات الشغالة، برعاية بيضات نحل الزنبار هذي، حيث إنها تموت كلها في الشتاء؛ لأنه فصل الخواء، فقط تبقى نحلات الزنبار حيّة، في حالة بيات طوال الشتاء، وتصحو متأخرة كثيرًا، عن موعد صحو ملكات النحل؛ تمنهن خلال ذلك، وقتًا يقمن فيه ببناء الخلية الجديدة، لكن الطبيب لم يلاحظ ذلك كله؛ لأنه كان مشغولًا بالكلب الهَرَم. قال:

"سوف أعطي كيرلي حقنة تجعله ينام".

فسألته "إيمي" -متفهمة كل شيء تمامًا: "وهل سيصحو؟".

فأجابها: "لا لن يستيقظ ثانية.. هل تريدين مساعدتي؟".

نفخ كيرلي، وكرّ أسنانه نحو النحلة، حينما كان صغيراً؛ اعتاد أن يطارد النحلات. أخذوا الكلب، إلى حيث اعتاد أن ينام، في ركن من فناء حلب الأبقار، وأرقدوه هناك، وكان كيرلي قد تتبعهم؛ فساروا ببطء لأجله، كان الأمر مؤلماً، فكم امتلئ كيرلي بالأمل، وكانت نظرتة للأشياء تمور بالحب على إطلاقه، ويبدو سعيداً بها للأبد، تمدد على الأرض وسط القش ساعياً إلى النوم. سألت "إيمي": "ماذا يوجد في الحقنة؟".

ولم يشأ الرد عليها؛ إنها مسألة وحشية، لأنه مازال يذكر صورة الفتاة الصغيرة، التي تقود الكلب حول المزرعة من أذنه، منذ سنوات عديدة. ثم قال:

"إنه دواء سيجعل قلب كيرلي يبطئ شيئاً فشيئاً حتى يتوقف"..... ولم يكن بحاجة للتأكيد، على أن ذلك لن يؤلم الكلب، بسبب الطريقة التي قال بها ذلك الأمر. فقالت:

"مثلما يوقف الطقس المطر، لم يتأثر بشيء في عمره، أكثر مما يتأثر بالأسئلة الجميلة للأطفال".

فرد: "نعم.. مثلما توقف الدنيا المطر".

من بعيد؛ سمع "جاريث" صوت النفير؛ فعرف أن الطبيب البيطري قد وصل، فبدأ على الفور طريق عودته للمزرعة. كانت محاولة التحرك سريعاً عبر المستنقع -رغم جفافه- أمراً صعباً جداً، وعندما سمع صوت عربة الطبيب يعود للحياة، وتحتك إطارات سيارته فوق حصى- الفناء. عرف أن الكلب قد لفظ أنفاسه؛ فنظر خلال المنحدر، نحو بيت المزرعة، حيث شاهد الغبار يتطاير فوق الممشى. وقد أثارت العربة القديمة؛ عندئذ استدار مرة أخرى، وعاد آيلاً للمستنقع...

البقرة

مضت البقرة بكسل شديد فوق الممر، بين صفي شجيرات الشوك. كان باستطاعتها سماع صوت العربة تأتي، ثم تذهب، لم تكن تحب المستنقع، الذي ظل لفترة طويلة، يمتلئ بالأشياء الخافية، تلك التي أحضروها عبر المخيمات الخشبية لمقاطعة ويسكونسين، والتي علم بشأنها والد "جاريث"، من القوات الأمريكية، التي خدم بها، ولا يهم مدى سرعتك في الالتفاف خلفك، ولا كم أضنيت نفسك بحثًا عنها، فإن تلك المخلوقات الخفية، تظل خلفك، لذا فإنه لم يستطع أحد أن يصفها أبدًا، إلا إن البقرة -وحدها- هي التي شعرت بهم، إذ بدأت تُجن قليلًا الآن، وتشعر أنها يجب أن تلد العجل، لكن جسدها لا يستجيب، لقد كان شعورًا غريبًا للبقرة، حيث بدأ تنفسها يخفق، وكانت تزفر بشدة عبر أنفها. استمرت في السير تحت الشمس، وكسرت السور هنا أو هناك؛ لأن الذبابات بدأت تدفعها بصورة سخيفة، وتحط على وجهها طوال الوقت، أصابها عطش شديد؛ فحاولت إيجاد الماء في ساعتها، واستمرت في السير...

obeikandi.com

الفصل الثامن

المسح

قالوا أن هناك وحشًا بالمستنقع، وألفوا حكايات كاملة، حول حيوانات المنطقة؛ لإبعاد الأطفال عن تلك الأماكن الخطرة، وإن كانوا يروونها للأولاد بطريقة مسلية، لا تؤدي لتصديقها تمامًا، حتى أصبحت لعبة، أمكن للأولاد لعبها بالبقاء بعيدًا عن تلك الأماكن، دون جذبهم إليها؛ إذا ما انتابهم الفضول الناجم عن الخوف، ولم يعرف "جاريث"، أن في مقدوره رواية تلك القصص؛ حتى جاء يوم أخبرهم بها، وذلك ما أشاع فيه السرور، أما هو فقد نَمى وترعرع هنا، وُسِّمَ له دومًا بأن يكون معتقدات لنفسه؛ لأن الريف لا يمنع التظاهر في بعض الأمور، بالطريقة الشريرة التي تمارسها المدينة. كان الوحش في المستنقع يشبه الكانجارو؛ لكن بأقدام فيل، وليس له رأس الكانجارو، إنه أشبه شئ برأس طويل لأرنب، في حين يشبه وجهه، حشرة مسحوقة مُقرفة، بعينيهما الدقيقتين، اللتين لا تفصحان عن شعوره، وإنما أسنانه فقط، هي التي تفسح مجالاً لإبداء مشاعره، ولسنا في حاجة إلى القول بأن الوحش، كان غذاءه

الأطفال. كالحية عاش في وكرٍ من الطين اللزج، لم يكن يشبه الحية في كثير، فهي خليط من الغشاء والجلد، يتحرك منتفخًا مثل الدودة، التي سقطت في الوحل، كان في حاجة للغذاء طوال الوقت، عاشت على وجبات من البو المستحلب من البقر، وهذا هو السبب في إبقائهم على تربية البقر مع الغنم، وذلك لجمع مستحلب البو لهذه الحية، وهكذا أبقى على مزرعته، ومن هنا نجد أن إيمي هي التي ابتكرت نظرية، إنها تعرف أي الأبقار أكثر إنتاجاً للبو عن درها لـ اللبن، وذلك استنتاجاً من نسبة وجود البقع السوداء إلى البيضاء، على جلود البقر، وهم يضيفون إلى ذلك قولهم، إنه عليك ألا تقترب أبداً من حفرة هذه الحية. كان "جاريث" قد حارب وحش المستنقع، واقتلع الوحش -حينها- إصبعه؛ حين كانوا يقتربون من المستنقع مع الأطفال؛ كان "جاريث" يريهم عظام، ورفات الحيوانات المتناثرة؛ كيما يدركوا حقيقة القصاص، التي يسمعونها. الجو الآن شديد الحرارة، ويقطر سخونة، فيقول لنفسه: "تلك البقرة اللعينة"، إنها لحرارة جافة، كما لو أنك تضع يدك، قريباً من الحديد الساخن. أخذ يفكر بعمق في موضوع الكلب، وقد كان متأكداً من أنه لم يجلب له الموت، إذ وقع هذا بفعل الزمن، وأنهم لم يقتلوا الكلب كيولي، لأنه بدأ ينفر منهم، رغم أنهم حاولوا ألا يصرحوا بذلك، فإن الحيوانات يتم إنهاء حياتها من أجل "خاطر" ملاكها، وهو لم يؤمن أبداً بأن الحيوانات يتكاثر لديها الألم كما يفعل الإنسان، وهو - كذلك - قد راقب الحيوانات، لفترة تكفي ليعرف أنها تقاوم الموت بشراسة، أو أنها تقعي أرضاً وتموت ببساطة. لقد آمن بالكرامة، وأنها حق في الحياة، وليس مجرد حق إنساني فقط، وعرف أن التخلص من كيولي بموته، مسألة تتعلق بالكرامة. وطمأن ألا تحزن إيمي بشدة، متأكداً أن "كيت"، سوف تشرح لها هذه الأمور بلطف؛ أثناء وجود الطبيب هناك؛ لكن "كيت"

نامت، حيث يقوم النوم بتغيير آلامها، ذلك الألم الذي يشبه برادًا إناء، يمور بالماء المغلي، يحوله نومها إلى بخار. فكرت في إصبع "جاريث"، وهو يلمع كالدمل البثرة، الذي تم شفاؤه، وفكرت في: أكتافه، وأربطة ذراعيه، وشعره الخشن. مقارنة بجسدها؛ فقد أحببت جسده كثيرًا، كما أحببت الضالة الشديدة لجسد ابنتها، وأكتاف ابنها العريضة، إنها أحببتهم فيزيقيًا وطبيعيًا؛ بوصفهم أشياء، في حين أنها لم تستطع أن تحب جسدها. أثناء نومها؛ فكرت في ابنها، يقضي- حياته بأسلوبه، وفي ابنتها، تنمو لتصبح أكثر جمالاً، وأكثر تعقيدًا، مثل صورة من صورها العديدة، بينما تضيف إليها الحياة الكثير، وفكرت في المزرعة، وهي تتغير -هنا شعرت بالصداع، آخذًا في الانقشاع.

ديلان

لم يجد "ديلان" - حال عودته - "إيمي"؛ بينما وجد أمه نائمة في سريرها، كان ذلك بعد فترة من وجود الطبيب؛ لكنه لم يعلم بموضوع الكلب، و لم يصدق أن والده مازال يبحث عن البقرة. عندما عاد إلى المزرعة؛ قام بفتح هاتفه المحمول، بعد قيادة عربته ؛ وجد أن عليه الحصول على أنبوبة غاز، إذ إن ذلك الوضع، سيحرمه من عمل الشاي -حيث إن أمه نائمة، مع عدم توفر الغاز؛ فلن يكون أمامه سوى بعض من الجبن، وبعض الطعام والخبز، لذا فإن عليه أن يذهب لإحضار الغاز يوم السبت؛ ولأجل أن الوقت كان صيفًا، وهناك العديد من المخيمات غير المغلقة؛ سيكون أمر الحصول على الغاز إذن مطلبًا سهل المنال، أو على الأقل الحصول على أنبوبة صغيرة منها. لكنه لم يفكر جديدًا في المسألة؛ لأنه لم يرغب في الخروج ثانية، وجلب الغاز. على الممشى؛ رأى أسرة كاملة من ابن عرس، تلعب وسط الرمل، كانوا بطول يده: يتقدمون، ويتلوون بحرية فوق المَدَق، وبين الفينة والأخرى؛ يهاجمون بعضهم

بعضاً، رافعين قوائهم، متطلعين فيما حولهم، يتقافزون أمام الذبابات العابرة، أو فوق رؤوس الأعشاب. أخذ يراقبهم؛ متسائلاً: "إنه من الصعوبة بمكان، معرفة قدرة هذه الحيوانات على قتل كائنات أخرى، أكبر من حجمها".

يعرف أن عليه أن يساعد، في البحث عن البقرة، أو أن يجد إيمي ليلعب معها، لكنه شعر - في نفسه - أنه لم يشهد أي جزء من أحداث ذلك اليوم، لقد ذهب لزيارة أصدقائه طوال اليوم،..... وعندما قاد سيارته، عائداً للمزرعة؛ انطلق سرب الحمام، مُحلّقاً بعيداً عن الفناء؛ عند تصاعد صوت سيارته، ودخل المنزل، يستطيع - بالكاد - القول إن ذلك يوم قد مضى. التقط مفاتيح سيارته؛ لشعوره فجأةً بالاغتراب، فعاد مرة أخرى خارجاً، خلال أعوام قليلة؛ سيشعر بالرغبة في العودة للمزرعة، لكنه في هذه اللحظة، ترك مذكرة على المنضدة، تقول: "خرجت؛ أمل أن يكون كل شئ على ما يرام".

الحَمَامَات

وبينما يشق طريقه، طارت الحمامات عالياً مرة أخرى، فبدت - لبطء حركتها الغريبة فوق الأرض مقابل طاقتها الحيوية الزائدة وهي في الهواء - كما لو كانت من كائنين مختلفين هدفاً ونوعاً، وتبدت الحمامة البيضاء بينهن مثل الزهرة الوديعه، تساءلت الأسرة: هل يمكن لتلك الحمامات أن ترحل يوماً، وأن تسافر فجأةً ذات يوم معاً كما جاءت معاً، وكانوا قد شاهدوها هي تتقافز تتمايل تحت أشعة الضوء.

توجد في خلايا الحمامة، هناك في مكانٍ ما من رأسها، بللورات مغناطيسية دقيقة وحيّة، تمثل جزيئات رقيقة من خام الحديد المسمى ماجنتايت في شكل هباءات صخرية غير مرئية أدق من ذرة التراب،

تصنع لها بوصلة تتحسس بها الاتجاهات القطبية، وتلمس من خلالها ميول الحقول المغناطيسية حول الأرض. وتقوم الجسيمات الكهربائية في تلك البللورات، والمتحركة بين أيونات مختلفة داخل ممر مركب يؤثر على المادة المغناطيسية، بإرشاد الحمامات إلى طريقها الصحيح. وتوجد هذه البللورات في رؤوس النحل أيضاً. بل انهم اكتشفوا جزيئات الحديد هذى في قوقعة آذانها الداخلية وهي التي تمنحها الإحساس بالمكان وهي تطير في الجو أو في الفضاء الذي يسبحون فيه، ولو اضطربت مغناطيسية الأرض - للحظة- لضلوا الطريق جميعاً وهذا ما يدفعك للتساؤل: ترى ما هي البللورات التي تسري داخلنا؟ وما نوع ذرات الملح تلك فينا؟ لأن هناك شيء ما داخلنا يمنحنا الإحساس بما يجب أن نكون فيه ! هذا إذا أنصتنا لصوته... أيضاً.

العُشُّ

في طريق عودته للمستنقع؛ حاول "جاريث" أن يفكر في أمور أخرى، غير موضوع الكلب؛ لذا فإنه قد فكر في أمر الأرض، التي يرغب في امتلاكها، وكيف أنه سيحاول بنفسه بناءها، أو حتى بيع تقسيماتها. وقد تم تدبير مصدر التمويل؛ استرشاداً بدليل الأسعار، لكنه علم أنه لا يجب أن يبدي لهفته، ولا أن يذهب به الحلم بعيداً؛ فإن سعر الأرض قد يصل إلى مدى، أكبر من اللازم. حاول تركيز تفكيره بشأن الأرض؛ لكنه واصل التفكير في سخونة الجو، وفي كيت، وفي أمر الكلب. أفكار مجسدة كالصوت تماماً، في جسم كيت الأبيض، فإن الزمن يُغيّر الأشياء، ويقبل بتغيير جسمها تماماً، كقبوله تغيير المشهد الطبيعي حوله. إنه يعي أن اهتمامه به -الآن- يفوق رغبته فيها، و يعرف أنها تشعر بذلك، على أنه افتقار إلى جوع الجنس،.... و ربما يكون ذلك مختلفاً، في خبيئة كل منهما، فإنه يعتقد أن هذه الأمور، تختلف عند الرجل؛ فلو أنك تشاق

لامرأة ما، لكان ذلك بسبب أنك؛ تشناق إلى النساء بشكل عام، لكن يمكنك أن تهتم بامرأة واحدة فقط. لأجل شراء أرض في مزاد؛ يتوجب عليك أن تحصل على دليل المزاد، ورقم المعروض للبيع اللوط، وتقوم بعمليات البحث والمسح، لما تُقرر شراءه بنفسك. لم يقم "جاريث" بمسح الأرض، ودخل في جدال شديد مع "كيت"، بخصوص ذلك، قائلاً: "أنا أعرف الأرض إنها شبيهة بأرضنا، فقط هناك طريق واحد بينهما؛ مستدرگًا: "يجب أن توفر كل مصادرك لتمويل المشروع". وتُستكمل الأبحاث، وعمليات المسح قبل المزاد، وبمجرد رسو المزاد عليك؛ ترتبط بعقد لشراء تلك الأرض. كما أنك يجب أن تبحث، عن موافقة المسؤولين، على تخطيط وتقسيم الأرض، لدى الإدارة المحلية، لكن "جاريث"؛ لم يكن لديه أية موافقات في هذا الصدد، لأنه يعلم عدم وجود خطة للتقسيم بعد، ويعرف كيف تنتشر الأفكار بسهولة في هذا البلد، و يأمل ألا تراود هذه الفكرة؛ أحدًا آخر. أثناء انتظاره لقرارات خطة التقسيم؛ سوف يستغل الأرض في الرعي، ومع زيادة المساحة؛ يقوم بزيادة عدد أغنامه، ولسوف يسدد المشروع بهذا الأسلوب تكاليفه؛ قالت له "كيت": "إنها فكرة مجنونة"، حين يتذكر قولها هذا؛ تنتابه نوبة الحُكاك مرة أخرى، فليهما تكون مجرد فكرة مجنونة، وأخذ يفكر: "مجرد فكرة مجنونة". يجب عليه أن ينظف تلك الأحراش، ويستغل هذه الأرض، وهو يقرر ذلك دائماً؛ كلما جاء إلى هنا، وكل أحلامه التي لم تتحقق بعد؛ تشبه الأحلام، التي يخطط لها المرء، مع من يحب، ولا يكتب لها التحقق أبداً، ويقول في نفسه: "انزع النباتات الضعيفة، والمريضة؛ ودع الأرض تجف سريعاً، وستصبح المسألة، كمن يكتب مذكراته، يقول في نفسه: "و ذلك باختيار ما يجب أن يبقى ليحصل على مساحة كافية؛ لكي ينمو من جديد، وأشجار الصفصاف، تنمو سراعاً، والجذور - التي قد تظن أنها

تشرب الماء- لا تفعل ذلك. فهي تحجزها داخل الأرض؛ محولة الأرض إلى مستنقع. وإذا اقلعت الأشجار؛ فإن الأرض تموت جفافاً، و يبدأ الماء في التسرب بعيداً، الآن؛ هو الوقت الملائم لهذا العمل، خاصة أن المستنقع قد جف بالفعل. يمكنه الحصول على بعض من الحقول الجديدة بعد سنوات من الآن، يا لهذا المستنقع، وذلك العفن، وهذه الظلمة وآثارها على المرء، و يستمر متأملاً، إننا لن نفقد الأبقار بعد ذلك، يشعر بالغضب لأنه لم يحضر لحظة وجود الطبيب البيطري، ذلك المستنقع اللعين؛ يفقدك الإحساس بمكانك، أنا أريد من كيت أن ترغبني، لكنه فجأة -مثلما يضئ النور المسافات- يدرك ما يجب أن يفعله، يعرف ذلك جيداً و بوضوح، إن ما يجب عليه فعله هو أن يسير، فقط أن يسير، وأن يمضي قدماً بعيداً عن كل ذلك، يسير و لا يتوقف أبداً. يبتلع غضبه؛ قائلاً في نفسه مرة أخرى: "إنها سوف تكون مجرد مرحلة، و مجرد تغيير، ولم أقصد أبداً تمنى هذه الأمور، التي فكرت فيها من قبل". فيما هو يفكر؛ يجد أمامه المكان الواسع المريح، الذي صنعتة البقرة لنفسها، ولما كانت البقرة غير موجودة في المكان؛ فإنه لم يعد في استطاعته البحث عنها، أكثر من ذلك، وأخذ يفكر: "إن كل ما يجب عليّ فعله، هو أن أستمري في السير، حيث إني لا أملك إلا إمكانية الذهاب، الذهاب فقط".

الجَرَّارُ

كان الجرار موجوداً بالمزرعة؛ منذ أن وصلت أسرة "جاريث" هناك تقريباً؛ وعندما اشتروه كان جديداً. كان "هنري فورد"، قد أجرى محاولات مخففة، تعود إلى عام ١٩٠٧م؛ لتصميم جرار، يستفاد به في الزراعة، ثم آب إلى تلك المحاولات مجدداً؛ عقب نشوب الحرب، عام ١٩١٥م، بجهود أكثر تركيزاً، تُدعمها مبادئ فورد للإنتاج الكلي، حيث إنه كانت هناك حاجة هائلة، لإدخال الآلات في الأراضي الزراعية؛ بسبب

ذهاب العديد من الرجال، والجياد إلى معمعة الحرب. و في عام ١٩١٧م؛ بدأ إنتاج موديل: فوردسون ف، يستجيب - بمفرده - لاحتياجات حكومة بريطانيا العظمى، وخلال عشر سنوات؛ تم بيع ثلاثة أرباع المليون من وحداتها. منذ بدأ الجرار الأول - وبعد ذلك- كان الجرار فوردسون؛ أكثر تصميمات الجرارات، تأثيراً في تاريخ هذه الصناعة، ولم تصمد أمام منافسته؛ سوى أشد أنواع الإنتاج الأخرى صلابة، في معرض "سميث فيلد"، عام ١٩٥١م، وهو العام الذي غادر فيه والد "جاريث" البنك، وفيه كشفت شركة فوردسون، عن إنتاجها الجديد باسم: ماجور إي ون أيه، المزود بمحرك ديزل، سهل التشغيل، صلب، ومقتصد في استهلاك الوقود؛ لذا أنهى وجود الجرارات، التي تعتمد على محركات رذاذ البنزين، وبرغم ذلك، ظلت الحاجة لجرارات، و آلات أصغر، تتزايد؛ حتى عام ١٩٥٧م؛ فقد أطلقت الشركة، موديلها المسمى: ديكستا. ولدى "بيل" واحد منها، إذ إنهم قد احتاجوا إلى جرار أكبر حجماً في المزرعة. كان لديه موديل، من نوع ماسي منذ سنوات قبل ذلك، أول ما فعله ذلك الجرار؛ هو بتر إصبع "جاريث"، كما لو كان الحيوان، الذي لم يتم ترويضه بعد. قبع الجرار الفوردسون، تحت مظلة الحظيرة؛ زمناً طويلاً وهذا المكان بناه أخو "جاريث" لممارسة هواية إصلاح سيارته، وإصلاح آلات المزرعة وهذا الأخ، يمتلك "جراجا" الآن في شمال البلاد، وفي الشتاء كانت كريات الجليد الطويلة - التي كانوا يستخدمونها في الشرب واللعب معاً- تتدلى من سطح تلك المظلة، لكن حرارة الجو السائدة هذه الأيام؛ قد تجعل تخيلك لوجود وحيد قرن، أيسر من تخيلك وجود كريات الثلج هذي. وقد بهت لون الجرار الأزرق اللامع، وسقطت قشوره، وأصاب حديده الصدأ؛ لدرجة أنك تستطيع اختراق سطحه بإصبعك، وكأنها قطعة من الكيك، لكن يظل للجرار شخصيته المميزة، فقد يلعب الأولاد فوق

مقعده المتهالك، ويتقافزون..... وهم يتظاهرون بقيادته، وقد رغبت "إيمي" في منحه حمامًا لتنظيفه. عندما سيطر - فجأة - عليه عقله، تطلع "جاريث" للجرار، و ربما أقر بأنه مازال بحال جيدة و قوية، و يجب أن يعود للعمل، مثل الشخص القوي، الذي عليه أن يعمل. لذا أعطاه لـ "بيل"، الذي ساعده في تنظيف ذلك الجرار من جديد؛ لأن موديل الديكستا، كان آخر تصميم، يحمل اسم فوردسون؛ لذا فإنه سيكون من العار، أن يتحول إلى هيكل حديدي، فوق تلك الأرض. دار "بيل" بالجرار إلى الأمام، وإلى الخلف؛ محاولاً حرث التربة، بمشط تمهيد التربة المشلفة، كان قد رأى الطبيب آتياً، ثم مغادراً، و تمنى ألا يكون قد حدث لأحد مكروه. لَوْح بيده للطبيب؛ لأنه كان يعرفه، و رغم أن الطقس، كان شديد الحرارة؛ فقد كان "بيل" يرتدي نفس الملابس، التي كان يرتديها دومًا، وكان العرق ينبثق غزيرًا من جسده. كانت البقرة الآن ؛ قد وصلت إلى حافة الجنون، بسبب الذباب، و ثقل حجم العجل في بطنها، وكذا تلك الحرارة الملتهبة بلا توقف للشمس، وقد أطلقت نعيها؛ صارخة من شدة العطش. تراكمت حرارة النهار عبر التلال، وكانت مجهدة؛ لاضطرابها السير بطريقة معينة، بسبب ثقل العجل في بطنها، أرادت أن ترفس، وأن تقفز كما لو كان ذلك سيخلصها من حرارة الشمس. أضحى الوقت مساءً؛ لكنه ما يزال حارًّا؛ فبدت حُمرة جلدها مُذهبة، تحت الشمس.

كانت تسير قدمًا، محاولة الوصول إلى غُور ماء، وهي تفكر في نفسها: "لسوف أمضي قدمًا لفترة، لكنني أستطيع الرقاد والنوم ههنا". لكنها لم تعرف أين تكون الآن، كان لها رأس غريبة مهتزة، أشبه برأس المعتوه، وكانت تفكر في أن تصدم نفسها، بضفة النهر الجافة، أو السور؛ حتى تفقد إحساسها، وتفلت من ألم تلك الحرارة العالية، واندفعت دون

تبصر؛ نحو ألواح الصاج المتموجة للسور، التي انحنت بفعل ثقلها، ووصل إلى سمعها صوت الجرار؛ فأطلقت صيحة ناعبة، وسقطت فوق السور، محطمة إياه، كانت ألواح الصاج، معرضة طوال النهار للشمس، وكانت شديدة السخونة، تحت ضرعها، وكانت تلك هي اللحظة، التي وجدت فيها "بيل"..بينما تقول كيت لنفسها [وأنا أتساءل أين هو الآن؟ وماذا بوسعي أن أفعل إذا ما تركني، وإذا لم يعد؟، أو إذا ما قرر الرحيل؟. كان يجب عليّ، أن أبحث عن البقرة، وأن أكون بجواره، فلربما كان الأمر لطيفاً معه تحت الشمس؛ فأنظر إليه، وأعلم أنني كنت محظوظة، لأنه رجل صالح، وأحبه كثيراً، لكنه يشعرني بالغثيان، فما حيلتي؟ وأحياناً، عندما أشعر بيديه حولي؛ كل ما أفكر فيه هو ذلك الأمر الآخر، وكيف كان ذلك ممتعاً أثناء حدوثه، والتفكير في هذا -أيضاً- يشعرني بالقرف، ورغم أنني أعرف أن المرض قد يصيب الرجل دون أن يدري؛ فإني أفكر أحياناً في المرض الذي يصبه في جسمي كل مرة نتعاشر فيها، وأنا أكرهه بسبب ما فقدته من أطفال، لكن من دونه؛ أنا لا أستطيع مجرد التفكير أن أكون ههنا.

الفصلُ التاسعُ

زُهُورُ الهِنْدِ بَاءِ البرِّيَّةِ

ركع بجوار الكلب؛ وضرب يده عبر فروته السميكة، كانت الطريقة التي يرقد بها صعبة الاحتمال، وينظر إلى الجرح البليغ على قدمه، الذي وضع الطبيب فوقه بعضاً من مسحوق العلاج؛ لإيقاف أنين الكلب، أفزعه حجم الورم، الذي بدا كما لو كان كائناً به حياة، وما زال ينمو فوق جسمه؛ وهو لا يتحمل لمسه، يراه شيئاً هائلاً، التصق بالكلب ليسقطه

جثة هامدة، كان مرعباً - بالنسبة إليه - أن ذلك الورم قد أتى من داخل الكلب، وأخذ يقول برقة:
"هناك أيها الولد.."

ثم يرى "إيمي"، تحت ضوء الشمس، بجوار مدخل الباب. يراها طفلة صغيرة، ترقص فوق العشب، تظل تدور، وتدور في وهج الشمس، ويدها زهرة الهندباء كالساعة، ناثرة بذورها حولها. إنه يسمعا تنغو، طوال السنين الماضية. و يرى ذلك الهدوء الشامل والهائل، الذي تنثر ابتسامتها من خلاله. تأتي إليه عابرة، وتلمسه بغريزة قطة؛ تلعب بقطعة من الورق، قائلة:

"إنه بحال جيدة..".

فقال لها: "إنهم أنهاوا حياة كيرلي".

دخل الحجرة لتوه، وتوقف لبرهة قصيرة؛ وقال ببساطة شديدة:
"لقد أنهاوا حياة كيرلي".

ثم توقف فترة أخرى سريعة وخرج؛ لأنه لم يعرف ماذا سيفعل. تجلس على جانب السرير، وتقبل فكرة أن الصداق قد اختفى. مشهد مرضها؛ ينتشر - حولها: كوب الكاموميل الممتلئ إلى نصفه،... وحببات الأسبرين، وبقايا الماء، مع مجلة تُركت مفتوحة بإهمال، على أرضية الحجرة، بجوار السرير، والستائر القاتمة المُسدلة، وزجاجة الماء الساخن، التي ركلتها بعيداً؛ بسبب سخونة جو ما بعد الظهر، ذهب الألم الآن؛ وهي تتسائل بتعقل واضح:

"إذا كان ذلك حقيقياً؟ فمن الصعب استدعاء الألم، عندما لا نكون في دائرته؛ لأننا نتذكره بغموض شديد، ونبت فيه الحياة - رسماً - بوصفه مخلوقاً تقريباً؛ بأن نضفي عليه صفة مُدقة".

يبدو أن لهذه الأشكال من الصُداق؛ أسلوبان يؤديان لانهيائها، أولها: تلك النقطة الطرفية الحادة لليوم، التي تجعل الأمر، كما لو أنها تستطيع معرفة العالم، فقط من خلالها، وكأنها تنظر من خلال طرف دبوس صغير. وثانيها: الثقل، إنه حمل ثقيل كالطين؛ ذلك الشعور الأولي الكئيب الموجز، الذي ينتابك عندما تصطدم رأسك بشيء ما، وتبقي بهذا الوضع، مخدرًا دون حركة، وثقيلًا حتى يبدأ في التداعي مثل صخرة، تطل على الشاطئ، وتنحدر على جانب واحد من جسدها، في انهيار ثلجي بطيء من الألم، ثم تبدو كلها عندئذ في طريقها للرّواح.

نَهَايَةُ الذِّكْرِيَّاتِ

يصب "جاريث" لنفسه كوبًا من الماء؛ وينظر من النافذة التي تعلو الحوض، فوق القش المتناثر، ومزاود الطيور، و التراب الموجود، في المساحة الصغيرة بالخارج؛ قبل بداية المرعى، وماؤهم يأتي من ينبوع مجاور، يسيل باردًا حتى الآن. خلال بضعة أيام؛ سيصل "جاريث" لنهاية المذكرات، التي تنتهي بذهاب والده للمزرعة، ولسوف يتساءل في نفسه، عما إذا كان والده، قد علم بإصابته بالسرطان -في وقت ما؛ لذا فقد نحى كل الأمور، واختار -فقط- أكثرها أهمية. سوف يبدو الأمر غريبًا أمامه؛ أن تتوقف الذكريات، عندما انتقلوا للمزرعة؛ لأن ذلك -في الواقع- حيث تبدأ ذاكرته هوفي الحضور، وسوف تنص البداية، على قوله: "هكذا في عام ١٩٥١م؛ غادرت المصرف البنك، وذهبت لاحتراق الزراعة.. وإن هذا ما اعتبره العديد من زملائي، عملاً أحمق، واليوم أقر بأن هناك جزءًا كبيرًا من الحق في أقوالهم. لكنني وسط أيامي الأخيرة؛ لا أشعر بأي أسف لما قمت باختياره، وقد توافقتني في ذلك زوجتي وأولادي، ثم ماذا هنالك من آخر في الحياة؛ غير إتباع الطريق، الذي يجلب لك المتعة والاهتمام، دونما حساب للتكلفة أو الخسارة، ماذا

هنالك سوى الاستمتاع بتلك الأشياء، التي نرغبها، والتي تمنحك السعادة". "جاريث" هنا، يتمنى كثيرًا الحصول على تلك السعادة، وهو يفكر في نفسه، قائلاً: "تلك الأشياء اللعينة.. تلك التفاهات القذرة".

عُصْفُورُ السُّورِ

مر ذلك العام، وفي هذه الرقعة من الأرض، و داخل باحة المنزل، كان عصفور يأتي كل يوم؛ ليأكل بقايا الخبز، وقطع البندق المتكسرة، ونفايات الدسم، الساقطة من مزودي الطائرین، المُعلّقین بشجرة السوق، القريبة من سور الشجيرات، كان يبدو من ناحية عصفورًا مكتملاً، ومن ناحية أخرى، يمكنك أن ترى فقاعات نامية مثل مجموعات من الملح على منقاره وعينه. كان صاحبًا وريقًا؛ وإن ظل غريب الشكل، وقد أتى بعد أن ذهبت الطيور الأخرى، وقد لا يكون هنا، العام القادم. يستدير ويديه الكوب البارد، "كيت" موجودة هناك: "لقد قمت الآن". وهي ترتدي ثياب نومها، وتحمل قطعة القماش المبللة، التي كانت تضعها فوق رأسها. تقول:

"أنا آسفة".

تقولها بطريقة من لا يعتذر، و إنما سؤال مجرد.

"الآن قد نهضت و إيمي كان عليها أن تتعامل مع الكلب".

"نعم.. لقد أخبرتني"

ظن أنها لم تعي كلامه؛ تنظر، ثم تقول: "صداعي"

إذ ما تزال تشعر بهشاشتها، مثل صمام من الزجاج، يردد مرة أخرى:

"إيمي، كان عليها أن تتعامل مع الكلب".

وقفت مكانها، متوردة الوجه ذابلة؛ ظن أنها تبدو ضعيفة، وذلك ما دفعه، إلى أن يكرهها في تلك اللحظة بالذات؛ لأنه لم يصدق ما يرى.

قال لنفسه: "ما مدى عدم رغبتني فيك الآن".

"لابد أنك قد استدعيت الطبيب البيطري، صباح أمس".
يكظم غيظه ؛ لكنه يشبه صلصلة عجلة، قادمة من بعيد:
"لقد كنت في البنك المصرف في الصباح".
"نعم و هذا حلمك"، وكانت شريحة جدًّا؛ وهي تنطق لفظة حلم.
"لم أجد البقرة".

وظلا صامتين، يجلس بجوار النافذة، ويشرب زجاجة المياه، كان غاضبًا منها؛ لأنها مكثت في الفراش، أثناء قيام الطبيب بقتل الكلب. بدأت تفيق، وتحدث متأثرة بتنفسها المتقطع، الذي شكل إيقاعًا خاصًا لحديثها، مثيرة عواصف من الجدل وراءها.

"أنا لست عبدًا لهذه الفكرة يا كيت". فهي تذكره بالأرض.
"كان لابد وأن يموت بالأمس..الكلب".
أخذًا يُبعدان ذكرى الكلب -بالفعل- وذلك بعدم ذكر اسمه:
"وعليك أن تبني فوق أرضنا".
وهو ينظر إليها؛ قائلة: "إنها أرضنا".
"بيل يستخدمها".

"إنه ضعيف يا جاريث، ولا يفعل شيئًا".
"لقد أعطاه والذي هذه الأرض، ولن أخذها منه".
"نستطيع أن نبني هناك العديد من المنازل".
"أرض لا نستطيع تمويلها"؛ يقولها مستشعرًا طعم السم في فمه.
"البنك سوف يقدم قرصًا".
"وماذا لو لم يمنحونا التقاسيم؟".

يأخذه التفكير: "يا الله.. يجب أن أرحل فقط من هذا المكان، وإذا وجدت لغضبي متنفسًا؛ لكان ذلك بمثابة الماء البارد".

ترى التغيير عليه؛ فتُغير مجرى الحديث مستخدمة ضعفها. تقول في إعياء: "أنا فقط قلقة.. فقد يكون ذلك ضاراً بك.. إنني أهتم بشأنك".

العراك

يقول: "أنت تستخدمين الاهتمام بوصفه سلاحاً.. وهو كالصوبة الزجاجية؛ حين تأخذ في الانهيار". بعد عراكهما هداً؛ فقال: "عليّ أن آخذ سلال الخبز وأعيدها"، وانطلق يقود السيارة.. يدخل "جاريث" من الباب الأمامي، ويضع المشعل على الرف في البهو، تقول له: "لقد أحضر- بيل البقرة"، وحاولا أن يتحادثا سوية. رأى "بيل" البقرة؛ فأوقف الجرار، وذهب لمعاونتها، كان له -دائماً- طريقة هادئة، في معاملة الحيوانات، رآها متثاقلة، بحملها الكبير؛ فساعدتها على الخروج من السور؛ حيث كانت قد انحشرت، بين ألواح السور الحديدية المتموجة، خرجت أولاً بمؤخرتها من السور، وضرعها الضخم، ملطخاً، ومشوهاً بالدماء، مثل بالون ممتلئ بالدماء، لهثت، ونفخت عبر أنفها، حتى في هذه اللحظة، ولكونها بقرة؛ فقد التفتت جانبها، وجذبت لسانها، ممتلئاً بحزمة من الأعشاب في السور، تفحصها "بيل"، وهي تمضغ الحشائش الطويلة، وعندما شربت كثيراً وبشدة من الدلاء التي أحضرها "بيل" من بركة الماء؛ نهضت على أقدامها، وانطلقت لمسافة قصيرة، حيث عاودها الإحساس بالجنون، رفست، واقشعرت؛ لكن "بيل" خاطبها بلطف، وفي الحال خفضت رأسها نحو الحشائش، وحكت أنفها على سطح التربة، وبدأت تتبع صوته، وأخذ "بيل" في الحديث والهمهمة، وتحركت البقرة البطيئة وراءه، واقترب اليوم من نهايته سراعاً؛ وذلك بغروب منتشر وبديع، كما لو كان غاضباً لنهايتها، في حين كان المساء جميلاً، مع البحر المتلألئ، والشمس تضيئ - نوعاً ما - وراء التلال البعيدة. كانت مسيرة طويلة ذلك اليوم، بالنسبة للبقرة، لكنها عادت للمزرعة، وكانت هي و"بيل" معاً، في

الفناء؛ عندما رأتهما كيت، بينما العصافير تطير على مستوى منخفض، بسبب تغيّر ضغط الهواء، وكان "بيل" يربت على البقرة، وينظفها، وقد تناثرت منها الأتربة مساءً؛ ليقول بيل: "يالهِ يوم حار.. يوم حار".

الفصل العاشر

الأرض

إنه لا يستطيع النوم كثيراً؛ بعد ذلك العراك. ترقد هي بجواره، متوترة، وفق الطريقة التي تنتابها مؤخراً، عندما تكون نائمة. انعقد طرف الملاءة الرقيقة، فوق فمها بعقدة محكمة، وبين الحين و الآخر؛ يقفز ذراعها، أو تتنفس بحدة، و يبدو الأمر كما لو كانت خائفة، وعندما تكون نائمة يصعب النوم بجوارها. حصل على نوبات متقطعة من النوم، ولم يكن كافياً ليدخل حالة النوم الصحيح، وبدأ الأمر، كمن يقوم بفتح عينيه -صدفة- على فيلم عنيف، كان هناك كابوسٌ خاطفٌ، فئران تهاجم وجه الكلب الميت، وتسلبه: عينيه، ولسانه، وتفتح ذلك الورم الكبير؛ فتنسب منه خلايا رمادية مريضة. ينهض، ويلبس سرواله القصير، والجينز القديم، ويلقي على جسده بـ التي شيرت الحديث. فإن عقله شديد الانشغال، ولا يمكنه تحمل التفكير في كيرلي؛ وهو راقد في كوم القش؛ بجوار عجلات الجرار القديم، وأجولة السماء، والآلات الخربة. إذ أن التفكير في كلبه الهرم؛ كان يطيح بكل شئ آخر، خارج ذهنه، ولا

يستطيع -وقتها- التفكير في العراك، أو حتى في الصباح بوجهها، ولا في اليوم التالي، ولا التفكير في البوابات، المخلوعة مفصلاتها، لقد أفزعته فكرة الكلب الميت الراقد؛ أما هناك، فإن الأمر يبدو، وكأنه لن ينتهي عند هذا الحد، فإنه لا يريد أن يستيقظ من نومه في الصباح، ويحتاج إلى دفن الكلب، وهنا تعاوده صورة الفئران، التي تنهشه. الأرض صلبة جدًا، وهناك دفء، مازال يسري في صمت الليل، ويشعر به قريبًا، وقاهرًا، ووخمًا، حقًا؛ إن الأرض صلبة، لكن العمل الجاد، يخفف عنه، وهو يدفع بالآلة إلى الأرض، لأن الحفر يكون صعبًا، دون وجود لإصبعه، ومازال كاحله يؤلمه؛ عندما يضع ثقله على رأس الفأس، لحفر التربة، لكن كل هذه الأدوات، تساعد على العمل -لا شك- وينفجر باطن الأرض بالتدريج، ناثراً التراب والحصى، وسط الضوء الرقيق، الذي يشعه مصباح تيلي، هذا المصباح يصدر هسيسًا؛ وهو يحترق، ليعطي ضوءًا فضيًا، فتبدأ الفراشات، و الذبابات تحوم حوله. كان قد أخذ المصباح من البهو، وملاه بغاز الميثان الوردي، نفاذ الرائحة، وهي رائحة، أحبها كثيرًا مذ كان طفلًا، عندما كانت رائحة هذا المصباح الغازي، تنتشر- بينهم في حظيرة الغنم، أو -لمرات قليلة- في الحديقة ليلاً، و انتثر بعض من الغاز على يديه، وتبخر بسرعة، تاركًا بشرة يديه غريبة، و جافة، لكن في مرونة حزام من الجلد. دفع بعضًا من الهواء، داخل المصباح؛ ليزيد الضغط فيه، وأشعل الرقاقة؛ فانتشر الضوء الفضي- الرقيق في المكان. يرفع الكلب؛ ليضعه في الحفرة التي صنعها، ويتبدى ككلب فخم ضخم داخل الحفرة، إن إهالة التراب عليه، عملية صعبة على نفسه، لكنها هي الصواب؛ لأن رائحة الهواء حوله تغيرت قليلًا. على الأرض المسطحة الجامدة، بجوار المكان الذي حَفَره، تهبط قطرات المطر، ثم تختفي، كأما ابتلعها الأرض الجافة. يرفع يديه عاليًا، ويبدأ المطر في الهطول؛ فتلمع قطرات المطر، في

ضوء المصباح، وتنتثر فوق سطح الأرض. عندئذ أمطرت السماء حقيقة؛ إذ هطل المطر، على الصاج المتعرج لسطح الرواق البهو، ثم يسقط نحو التربة الجافة المتشققة، وفوق الحقول الممتدة. نهضت "كيت" من فراشها، وذهبت مباشرة إلى النافذة، انحنت خارجها، تاركة المطر؛ يسقط على بشرة ذراعيها العاريين، و بدا غريبًا، كما لو كان جليدًا. تسمع صوته على السلام، وتذكر أنه قادم إليها بودٍ، إذ إنه لا توجد شحناء بينهما، تحني رأسها خارج النافذة، وعند عودتها إلى الغرفة؛ تتناثر قطرات المطر، فوق وجهها وشعرها، وتمرر عنقها، عبر فتحة قميصها الناعم، وتبدأ في البكاء، وهو قوي، وفخور، وصالح؛ يقول: "إنها تمطر"، وبالكاد تسمعه هي...

obeikandi.com

تَقْدِيرٌ

إن الذكريات، التي تدور في هذا الكتاب، مأخوذة من نص: هن إرفايريون جيمير يادن، المسجل على شريط سماعي؛ بواسطة جدي: "دافيد ليولين ويليامز"؛ قبل وفاته، عام ١٩٩٤م، وقد تم عرضها - هنا- إما بصدق، أو أنني استخدمتها، بعد تطويعها لأغراض الدراما السردية. أما عن قسم الأرنب، فإنه مهدى لـ "شين كيلى"، الذي كان متواجدًا هناك.

كونان جونز

obeikandi.com